محمد فريد

مقدمة

إليكم يا أبنائى أسوق هذه القصة ، ففيها غذاء لعقولكم ، وفيها متاع لقلوبكم ، وإرضاء لعواطفكم .

إنها قصة بطل مصرى عظيم كره الشهرة فاشتهر ، وآمن بحق الوطن فضحى فى سبيله بكل ما يملك من صحة ومال وراحة . لقد جعل حقوق زوجه وحقوق أبنائه وحقوق نفسه وراء حقوق الوطن العزيز ، فدل بعمله هذا على أن التربة المصرية تصلح لإنتاج أكرم الرجال ، وأعظم الأبطال .

إن فينا رجالا يحبون وطنهم أكثر مما يحبون أولادهم ، ويحبون المجد أكثر مما يحبون المال . وإن فى سيرة محمد فريد لتوضيحاً لما نقول .

إن هذه القصة تذكرك سريعاً بقصة أولئك الأمجاد فى كل أمة ، الذين ضحوا بكل شىء فى سبيل الحق والعدل ، فلم يخافوا موتا ، ولم يخشوا افتراء ، ولم يرهبوا أحداً .

obeikandl.com

إنى أقص عليكم قصة محمد فريد هذا الذى له فى عنق كل مصرى دين ، وله فى تاريخ مصر الحديث مواقف غيرت سير الحوادث ، وجعلت للمصريين قضية واضحة الأهداف ، بينة المعالم ، عرفها المصريون ، وآمن بها الغربيون ، واعترف بها المنكرون الجاحدون .

هذا البطل المصرى العظيم — على قرب عهده منا — وعلى شهرته العظيمة فى التاريخ — لا يعرف عنه أكثر المصريين إلا اسمه ، وإلا أنه زعيم من زعماء النيل . أما العناصر التى تألف منها تاريخ هذا البطل فإننا سنوضحها فى هذه الرسالة الصغيرة .

وعار على مصر والمصريين أن ينسوا محمد فريد . وإن تاريخه لهو كلمة الوطنية التى يجب أن يتلقاها الأطفال مع لبن أمهاتهم .

وإن تاريخه لهو كلمة التضحية التى يجب أن يتعلمها الأطفال مع ما يتعلمون من لغة ودين .

محمد فريد الطالب

١٨٦٨ — ١٩١٩ م

لا تفكر أيها الشاب فى هذه المقاييس التى يقيسون بها كفايات الشباب ، فأنت أجل وأعظم عند الله وعند الوطن مما يصفون .

إن جيدك ونشاطك لا يساوى — كما يقولون — ستين جنيها فى العام ، أو تسعين جنيها أو أكثر من ذلك بحسب درجة تعلمك .

دع عنك هذا القول ! ولا تفكر فيه أبداً ، ولا تصدقه ولا تؤمن به ؛ فأنت أغلى وأثمن مما يقولون . وأنت عند هذا الوطن من أضعاف وزنك ذهباً — إن كان الذهب يصلح معياراً تقاس به قيم الرجال — بل أنت أجدى على هذا الوطن ، وعلى الحياة الإنسانية الفاضلة ، من قناطير الذهب ، وكنوز المال .

إن ضميرك الحى ، وقلبك المملوء ثقة بالمستقبل ، وسمو أخلاقك ، ونبل غايتك ، ونظرك إلى العلا دائماً — كل هذا يجعل منك نوراً وهاجا ، وشرارة مضيئة تنير ولا تحرق . ولقد كان بطلنا من هذا الطراز ، فأخلص وضحى حتى صار من رجال الدنيا .

* * *

لقد كان هذا البطل شابا مثلك تعلم فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، ولم يعرف عنه فى هذه المرحلة إلا أنه طيب القلب ، صريح ، دمث الخلق ، محبوب عند إخوانه وأساتذته . وهذا الوصف الذى وصفناه به يجعله تلميذاً عاديا ككل التلاميذ . فهل كان كذلك حقاً ؟

لست أرى هذا الرأى ؛ فإن الصفات التى تحلى بها محمد فريد

القليل لا يستطيع أن يتحمل بها غيره ممن هم فى مثل أحواله وظرفه وتعيمه .

فقد كان أبوه أحد هؤلاء العظماء القليلين الذين يحملون رتبة « الباشوية » فى سنة ١٨٨٠ ، بل كان هذا الباشا ناظراً الدائرة السنية ، وكان محبوباً جداً لدى الخديو ، وقد تقلب فى عدة وظائف ، وكان مديراً لعدة مديريات فى أوقات مختلفة .

وكانت أمه كريمة لأحد كبار سراة العاصمة وتجارها ، وكانت سيدة فاضلة .

لم يركبه الغرور الذى يركب كثيرين من أبناء الأغنياء . ولم يشغله النعيم عن مدرسته ، وعن تحصيل دروسه . ولم تغير النعمة من طباعه ، فبقى كما عهده إخوانه ، دمث الخلق ، محبوباً من الجميع ، وتلك منزلة يحسده عليها الكثيرون .

وقد نال شهادة الحقوق سنة ١٨٨٧ ، وسنه تسع عشرة سنة ، وتزوج فى السنة التالية (١٨٨٨) ، وكان ذلك ضماناً لعفته وطهارته .

محمد فريد الموظف

١٨٨٧ — ١٨٩٦ م

كان ذلك منذ أكثر من نصف قرن . كان حامل الابتدائية موظفاً محترما . وكان حامل (البكالوريا) يتولى رفيع المناصب .

المغفور له المرحوم محمد فريد باك

أما حامل الشهادة العليا فكان يعد نفسه المناصب العليا ،

obeikandl.com

والوظائف الخطيرة . ولم يكن يظفر بهذه الشهادات فى الغالب إلا أبناء الطبقة الحاكمة ، ومن فى درجتهم من كبار الأغنياء .

وكان محمد فريد واحداً من أبناء « الباشوات » وكبار الموظفين كما ذكرنا .

والتحق فى سنة تخرجه (٢١ مايو سنة ١٨٨٧) بوظيفة مترجم بقلم قضايا الدائرة السنية ، براتب شهرى قدره عشرة جنيهات . وبعد عام واحد رقى وكيلا لهذا القلم براتب قدره خمسة عشر جنيها شهريا ، ونال « البكوية » فى سنة ١٨٩١ .

ثم نقل إلى النيابة العمومية فى وظيفة مساعد نيابة براتب قدره ستة عشر جنيها شهريا ، ثم انتدب لنيابة الأزبكية ، ورقى إلى وكيل نيابة من الدرجة الثالثة . وفى سنة ١٨٩٤ بلغ راتبه عشرين جنيها ، وفى مايو سنة ١٨٩٥ عين وكيلا بنيابة الاستئناف .

تسع سنوات قضاها محمد فريد فى الحكومة ، وكان مركزه يعده لأن يتولى منصباً كبيراً من مناصب الدولة ، لولا أن المقادير كانت تعده للزعامة الوطنية ، ولخدمة وادى النيل من منبعه إلى مصبه ، وللجهاد والعظمة .

نعم لقد كانت أحوال هذا الشاب تعده لعيشة هادئة ، ناعمة راضية ، فهو شاب ينعم بقوة الشباب ونشاطه . وقد حصل على أرقى شهادة فى مصر ، وقد تولى منصباً يؤهله للمناصب الكبرى

ومنها مناصب الوزراء . وأبوه من رجالات الدولة المعروفين ، وأمه من أكرم العقائل ، ومن أكرم الأسر فى مصر .

وهو بعد هذا كله قد تزوج ، وأصبح رب أسرة وأولاد .

كل هذه العوامل والأسباب كانت تجذبه إلى منصبه جذبا ، وتغريه بالوظيفة إغراء ؛ ففيها تلتمس الحياة الناعمة ، وفيها يلتمس الجاه والنفوذ والظهور والترقى .

وكيف يترك الوظيفة ، وهذا أبوه قد وصلت به الوظيفة إلى أرقى مناصب الدولة ، ونال أعلى رتبها ؟

وكيف يترك وظيفة الحكومة فى وقت كان الموظف فيه حاكما غير مسئول إلا عن إرضاء هيئات خاصة ؟ فإن رضيت عنه فله ما يشاء من رقى ورتب ورواتب ...

ولكن محمداً لم يهو النعيم ، ولم يسكن إلى الترف ، ولم يتشبث بالمنصب ، ولم يغتر بالوظيفة ؛ بل سار فى طريق كلها شوك وقتاد ، وحرب وجلاد ، ومشقة وجهاد ، فيها سيطرة ، وفيها حرمان ، وفيها نفى وتشريد ، وفيها وعد ووعيد .

وهو قد رأى الطريقين ، وجد بين السبيلين ، وتركت له فرصة الاختيار ، فانظر كيف يختار ! أتراه عاقلا أم به جنة ؟ أتراه واعياً أم به غفلة ؟

هكذا اختلف الناس فى أمر هذا الشاب ، وأيد كل منهم رأيه بالأسباب . فمن قائل : إنه طيش ، وطيش الشباب ، وتهور وحمق وغباء . ومن قائل : ثورة فى سبيل الحرية مشكورة ، وحرب على الاستعباد مشبوبة ، وغضبة فى سبيل الحق والعدل محمودة .

لماذا استقال محمد فريد ؟

أما سبب استقالته الحقيقى فهو رغبته فى الجهاد ، وكراهته للاستبداد ، وحبه للحرية . وأما السبب المباشر لهذه الاستقالة فهو أمر عده إهانة لشخصه ، واعتداء على استقلال القضاء . أظهر ميوله الوطنية ، وعطفه على قضية « المؤيد » التى قدم صاحبها للمحاكمة ؛ لتخمد الأنفاس ، وليذل الناس . وكيف يكون موظفاً ، ويعلن عطفه على قوم يحاربون الاحتلال ؟ وكيف يكون موظفاً بالنيابة ، ويشترك فى محاربة الاحتلال ؟ لا بد من نقله إلى الصعيد ، ولا بد له من أن يستقيل احتجاجا على الاحتلال ، وتدخله فى أن يمس استقلال القضاء .

وكانت تلك أول تضحية لموظف فى حكومة مصر ، يغضب لكرامته ، وكرامة البلاد ، وممن يغضب ؟ يغضب ممن بيدهم الأمر فى البلاد .

وكانت تضحيته هذه غير مألوفة فى ذلك الوقت . ولم يكن

أحد ينتظرها ، بدليل الضجة التى أثارتها فى مصر وفى أوروبة .

أرسل له الأستاذ محمود[1] أبو النصر « بك » كتاباً من باريس ، بتاريخ ٢ من ديسمبر سنة ١٨٩٦ بعد الاستقالة بأسبوع ، يصور له تقدير الناس لموقفه المشرف ، قال :

رسالة محمود أبو النصر بك الى محمد فريد :

« هاج بالى ، واضطرب خاطرى ؛ إذ علمت بما قابلك به الاحتلال جزاء إخلاصك للوطن ، وتظاهرك بنصرة الحق ، دون أن تخشى لومة لائم ، ولا سطوة حاكم ...

أليسوا باضطهادهم لمثلك عاملين على خدمة قومهم و بلادهم ؟ بل وما الذى كنت تنتظر غير ما عوملت به ؟ وقد عرف الخاص والعام شرف إحساسك ، ونبل قصدك و إخلاصك ، وشهد القريب والبعيد بفضلك ، وشمم نفسك ، وعزة مقامك ، حتى أنزلك الإخوان منزلة وحدك ، تنفبط عليها من أبناء الوطن عامة ، وأنجال الذوات خاصة . وحياتك إنه لأقل ما كنت أنتظره لك من يوم أن رأيتك ، وعرفتك . فماذا تقول ؟

اللهم إن كانت سعادة الحياة فى مثل ذلك الراتب الذى كنت تأخذه على شرط إماتة كل عاطفة شريفة فلا كانت الحياة .

---

(١) المرحوم محمود أبو النصر بك كان محامياً شهيراً ، ثم عضواً فى مجلس النواب منذ إنشائه .

اللهم إن كنت تربيت ونشأت فى مهد الكمالات الإنسانية لمثل تلك الخدمة ، فلا كانت التربية .

اللهم إن كان كبر عليك اضطهادهم ، وشق عليك بقيهم ، فإنك لست عندنا بفريد .

إن مطالب هذه الحياة منحصرة فى أمرين : سعة الرزق ، ورفعة المنزلة . أما سعة الرزق فمن الذى مات جوعاً ؟ والحمد لله لست إلى هذا الحد . وأما رفعة المنزلة فهو مطلب قد بلغته اليوم أكثر من ذى قبل ؛ فلقد سموت بهذا الاضطهاد منزلة فى قلبى أرفع من منزلتك الأولى . ومثلى من المحبين الصادقين كثير . فاصبر ولا تجزع . واهنأ ودم كما كنت فريداً » .

محمد فريد المحامى

١٨٩٧ — ١٩٠٤

ما أشبه المحاماة بالجهاد ! وما أشبه المحامين المخلصين لمهنتهم بالمجاهدين الصادقين ! !

إن المحاماة هى الخطوة الأولى فى سبيل الجهاد ، وهل المحاماة إلا دفاع عن الحق ، وإظهار للعدل ، وانتصاف للمظلوم من الظالم ؟ فلا مبالغة ولا مغالاة إذا قلنا إن المحاماة فى نزاهتها نوع من الجهاد ، وباب من أبوابه .

لذلك رضى محمد فريد بك أن يكون محامياً على هذا الأساس .
ولبث فى المحاماة سبع سنين ، كان فيها مثال المحامى النزيه الصادق ، فلم يعرف عنه أنه قبل قضية ليس صاحبها على حق ، مهما يضاعف له فى الأجر . عرضت عليه إحدى الأميرات قضية صكوك (كمبيالات) بمبالغ كبيرة على ورثة شخص كان قد حرر على نفسه هذه الصكوك ، فرفضها ؛ لأنه كان يعلم أصل هذه الصكوك ، وأن سببها غير مشروع ، رفض القضية مع أن ظاهرها تؤيده النصوص القانونية . وكذلك كان شأنه فى جميع قضاياه .

من هذا الذى نتكلم عنه ؟ ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم . لقد خلع رداء المحاماة نقيا ليلبس رداء الجهاد ؛ فما خلق ليكون محامياً عن فرد ، وإنما خلق ليكون محامياً عن أمة .

كان أبناء الذوات فى ذلك العهد يأنفون من الاشتغال بالمحاماة ، كما كان أشراف العرب فى صدر الإسلام يأنفون من قول الشعر . ولكن محمداً ضرب لهم المثل فى القدوة الحسنة ؛ فالرجل الشريف يستطيع أن يعيش شريفاً فى كل وقت ، مهما تختلف به أسباب الرزق .

الأدب فى خدمة الوطن

مصطفى صادق الرافعى

نود أن نصور الحياة السياسية فى مصر إبان المدة التى درس فيها الحقوق وما بعدها ، تصويراً موجزاً يعين القارئ على فهم رسالة الأديب فى ذلك الوقت .

كان الإنجليز قد دخلوا مصر سنة ١٨٨٢ للدفاع عن الخديو ، وحمايته من الثوار العرابيين ، ولكنهم فى الحقيقة دخلوها تنفيذاً لسياسة قديمة لهم ، ترمى إلى الاحتفاظ بمصر ؛ لموقعها الجغرافى الفريد ، ولأنها باب الطريق إلى الهند ، ولأنها تعد قناة السويس — بعد فتحها — أهم شريان يصل بين أجزاء إمبراطوريتهم الواسعة .

دخلوا مصر مدافعين عن الحاكم الشرعى للبلاد . وكان للبلاد مجلس نيابى فعطلوه ، وأقاموا بدل الجمعية التشريعية مجلس شورى القوانين ، وهو مجلس استشارى لا يملك سنّ القوانين ، ولا النظر فى ميزانية البلاد ، ولا مراقبة الحكومة .

وكانت الصحافة المصرية تسير فى طريقين مختلفين ، بعضها عون للاحتلال ، وصنائع الاحتلال ، والدفاع عن الحكومة القائمة . وبعضها حرب على الاحتلال وصنائعه ، ونقد لاذع

للحكومة القائمة . وكان لكل فريق من هذه الصحف أنصار وأتباع .

لهؤلاء الاضطهاد والمحاكمات والتنكيل ، ولأولئك النفوذ والجاه والتدليل .

وإذاً ففي مصر أخذ ورد ، وجزر ومد ، وصعود وهبوط ، وقيام وقعود ، وثورة وسكون ، وإذعان وعصيان .

في البلاد احتلال قبض بيد من حديد على مرافق البلاد جميعاً ، فالحكومة في يده ، وأموال البلاد تحت تصرفه ، ووظائف الحكومة صارت هبات وهدايا لمن يؤيد الاحتلال ، ويدافع عن المحتلين .

وفي البلد فريق الوطنيين الذين يحاربون الاحتلال ، ويطالبون بالاستقلال . وهؤلاء أعداء للاحتلال ، وأعداء لكل وزارة تؤيد الاحتلال . وفي البلد حاكم شرعي غاضب لسلطانه المسلوب ، وحقه المغصوب . وهو مشجع حتماً كل محاولة يراد بها تقليم أظفار الاحتلال ، أو تخليص البلاد من شره .

كان الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » يدعو لحق الوطن ، وحاكم البلاد الشرعي ، بقلم كان قصفه أشد من قصف المدافع .

وكان « اللواء » الذى أنشأه مصطفى كامل باشا لسان الحزب الوطنى ، ولهجته فى محاربة الاحتلال معروفة .

وكان هناك لواءان آخران يصدران عن الحزب الوطنى باللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية . وكان محمد فريد ممن اكتتبوا فى رأس مالها بمبلغ كبير .

تلك كانت حال مصر منذ احتلها الإنجليز سنة ١٨٨٢ ، فأما محمد فريد الأديب فقد جرد أدبه وقلمه وحياته لخدمة وطنه ؛ فكتب فى السنة التى تخرج فيها (١٨٨٧) مقالات نشرتها له مجلة الآداب للشيخ على يوسف ، بتوقيع (م . ف) ؛ لأن أباه كان ينهاه عن الكتابة فى الصحف خوفاً من التنكيل به ، فأرضى أباه ، وأرضى ضميره .

وفى المدة من سنة ١٨٩١ — ١٨٩٧ كتب مذكرات عن الأحداث التى حدثت بمصر فى هذا العهد ، فدل بذلك على أنه كان يقظا ، وعلى أنه كان يميل إلى التاريخ ومباحثه . وكانت له تعليقات على هذه الحوادث تدل على غيرته الوطنية ، وحبه لبلاده .

بل لقد ألف كتباً فى التاريخ ، واختص محمد على باشا الكبير بتاريخ واف كتبه وهو فى الرابعة والعشرين من عمره — وكان موظفاً وأبوه كما ذكرنا من العظماء — فكان ذلك دليلا جديداً

على أن هـذا الشاب من طراز خاص ، وليس من طراز أبناء الذوات . وأخرج كتاباً آخر فى تاريخ الدولة العثمانية ، وكتابا ثالثاً فى تاريخ الدولة الرومانية . وكانت له مقالات كثيرة أكثرها فى المؤيد ثم فى اللواء .

* * *

ذلك هو محمد فريد الشاب الموظف الأديب ابن الباشا الكبير ، وذلك هو أدبه وإنتاجه . فكيف رأيته ؟ وكيف حكمت عليه من أدبه ؟

أرأيته قد اتجه كما اتجه غيره من الشبان إلى الغيد الحسان ، يصف الظبى القريب ، والثدى المستدير ، والكاس والطاس ، وليالى أبى نواس ، بل انصرف إلى الوطن المظلوم ، والحق المهضوم ، والحاكم والمحكوم ؛ فدون المذكرات ، وكتب المقالات ، وأنشأ كتباً تذكر بالماضى المجيد ، ونشر تاريخ الرومان عسى أن تكون فيه عبرة لمن اعتبر .

وتمخضت هذه الحركة عن ظهور الزعيم الوطنى العظيم مصطفى كامل باشا ، فجمع شمل الأمة ، وطالب بالحرية ، وقال كلمته المشهورة : « أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا » .

وكان محمد فريد من المعجبين بمصطفى ، لأنه وجد فيه المصرى

الأمين ، المخلص لوطنه و بلاده . التقى به فى باريس ، وعرف آلامه وآماله ، فتوثقت عرا الصداقة بينهما . ومن ذلك العهد ظلا صديقين حميمين ، وزميلين مخلصين فى الجهاد . وتعاهد هو ومصطفى كامل والدكتور محمود لبيب فى سنة ١٨٩٦ على خدمة الوطن حتى الممات . وأول عمل شرعوا فيه تأسيس صحيفة أسبوعية باللغتين الفرنسية والألمانية للدفاع عن حقوق مصر فى أوروبة .

وازدادت عرا الصداقة والإخاء توثقاً بين مصطفى وفريد ، حتى صار فريد زميله المخلص ، وعضده الأكبر ، فى الحركة الوطنية ، ولازمه وأيده فى جهاده ، وبذل له ما بذل من العون الأدبى والمادى ، ومده بماله ، وظل وفيًّا له طول حياته ، ثم حمل الراية بعد وفاته ، فكان خير خلف لخير سلف . ففى صيف سنة ١٩٠٧ سافر مصطفى إلى أوروبة ، فأناب عنه فريداً فى إدارة الألوية الثلاثة .

ولقد كان مصطفى يراه خير خلف له فى قيادة الحركة الوطنية ، فاختاره وكيلا للحزب الوطنى فى أول جمعية عمومية له ، وأوصى بانتخابه رئيساً من بعده .

* * *

محمد فريد الزعيم

مصر كلها في القاهرة ، والقاهرة كلها خلف الجثمان الطاهر .

منظر رهيب يملأ النفس رهبة وجزعاً . أمة تشيع نعشاً ، ونعش يحمل أمل أمة . والجموع تمر تباعاً ، ولا تكاد تنتهي .

مصر كلها في هذا المكان : الرجال كلهم ، والنساء كلهن لم يتخلف أحد منهم عن الموكب . أولئك الفلاحات العجائز ، والفتيات المتدثرات بالسواد ، ومحاجرهن تفيض دماً ، وقلوبهن تنفطر هما وحزناً . قد أقبلن من المنوفية وجئن من دنشواي في قطار الليل ، والليل أسود حالك الظلام ، والنجوم تلمع ، والوادي كئيب حزين ، والناس ينظر بعضهم إلى بعض ولا يتكلمون .

أولئك الفلاحات العجائز ، والفتيات الصبايا قد جئن من أعماق القرية ليودعن المحامي مصطفى كامل إلى مقره الأخير .

أولئك الفلاحات العجائز ، والفتيات الصبايا قد جئن من دنشواي ليودعن محامي قضية دنشواي المشهورة .

إذاً لقد مات مصطفى كامل ، وفي كل بيت مأتم ، وفي كل قلب جرح بالغ ، وفي كل عين دمعة متحجرة .

مات المحامي الكبير ، والزعيم العظيم ، مات مصطفى كامل

الذى كان يدافع عن مصر . فمن محامينا اليوم ؟ أم ضاعت القضية ، ونسيت الأمانى ، وطارت الأحلام ؟

فى أيام المآتم الثلاثة كان الناس يفكرون فى هذا المصير .

واجتمعوا فى اليوم الرابع فاختاروا محمد فريد ليكون زعيما لمصر ، مكان المصطفى الراحل .

ووقف فريد يذكر آثار مصطفى وجهاده وقال :

« أيها الرئيس الغائب بجسمه ، الحاضر معنا بروحه ، قد سمعنا قولك ، وانتصحنا بنصحك ، فاجتمعنا اليوم لنبرهن للعالم أجمع أن عملك دائم بإذن الله . وإنا سائرون فى الطريق التى فتحتها أمامنا ، وضحيت بزهرة شبابك فى تمهيدها ، فنم فى أمان الله ورضوانه .

وفى الختام هلموا بنا نبتهل إلى الله أن يمدنا بروح منه ، ويوفقنا إلى ما فيه الخير والفلاح » .

وانتخب فى تلك الليلة رئيسا للحزب الوطنى بالإجماع .

وأول عمل قام به أنه أرسل برقية إلى وزير خارجية إنجلترا يقول فيها :

« جناب السير إدوارد جراى وزير خارجية إنجلترا بلندن .

الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبتنى رئيساً بدل المرحوم

مصطفى كامل باشا ، وكلفتنى أن أجدد احتجاجها على احتلال القطر المصرى بلاحق . وتعلن عزمها على السير فى خطة المرحوم الرئيس حتى تفى إنجلترا بوعودها » .

محمد فريد
رئيس الحزب الوطنى

وفى يوم الانتخاب دق جرس السرة (التليفون) ، وإذا الخديو يطلب الزعيم الجديد . فلما توجه إليه بسراى عابدين قابله على الفور ، وهنأه بكل لطف مؤملا الخير الكثير من وجوده فى مركز الرآسة ، وقال له : « إن وجودك مثلك على رأس الحركة الوطنية مفيد جدا ، لأنك لست محتاجاً ، ولا طالباً للمال ، ولأنك من أسرة خدمت البلاد . ووالدك كان مشهوراً بالثقة والصدق والإخلاص . ولا يمكن للإنجليز أن يقولوا عنك بأنك طالب شهرة أو مال أو وظيفة » . ثم سأله عن نظام الجرائد فأخبره بأنها ستسير بإذن الله ، وأنهم وضعوا لها نظاماً يساعد على بقائها ، ثم عرض عليه استعداده للمساعدة بالمال ، فرفض حتى لا يكون أسيره وطوع أمره ، وانصرف .

رأى الخديو بعد ذلك بأننى لست من الذين يطيعون أوامره

طاعة عمياء ، فأخذ يدس لى الدسائس لإسقاطى من جهة ، و يظهر لى التودد من جهة أخرى .

المقالة الأولى لحضرة قريم :

لا بمونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن ، وخور العزيمة ، ومطيتها الدهان والتلبيس . فى أسواقها الناققة تشترى نفيسات النفوس بزيوف الفلوس ، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس ، و بيمنك أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة فى القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد العام ، حياة الاستيانة فى الدفاع عن البلاد العزيزة . أستقبل هذه الحياة بعد أن قضيت فى سابقتها ثمانى حجج ، بلغت فيها ذلك المنصب الذى كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه . أستقبل فيه هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر ، منبريا فى ميدانها ، فإما إلى الصدر ، وإما إلى القبر ...

سيسير اللواء كما كان عليه خادما للأمة المصرية ، مدافعاً عن الأريكة الخديوية ما حرصت على مصلحة رعاياها ، مجاهداً ضد الإنجليز ما بقوا فى بلادنا ، حاثا على الفضيلة والأخلاق الكريمة ، داعياً إلى توحيد عناصر الأمة على اختلاف ملالها ونحلها ، وتباين مشاربها ولهجاتها .

فاللهم أسألك لساناً ناطقاً بالصواب والحكمة ، وقلما لا حولة له في ميادين القحة ، ولا علم له بمعاهد الفحش والسباب » .

هذا هو الأسلوب الجديد لصحيفة اللواء في عهد محمد فريد . وهو أسلوب قوي يمتاز بالصراحة في القول ، والجهر بالعقيدة ، وهو يشبه ما امتاز به فريد من صراحة وثبات .

هذا هو أسلوب اللواء على لسان رئيسه الجديد الأستاذ المرحوم الخالد الذكر الشيخ عبد العزيز جاويش .

كان محمد فريد في مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥م. فالتقى هناك بالأستاذ عبد العزيز جاويش — رحمه الله — وتعرف به لأول مرة ، وعرفه بمصطفى كامل سنة ١٩٠٦ بباريس ، فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية .

فلما رأى أن اللواء في حاجة إلى رئيس تحرير كفء لهذه المهمة عرضها على الشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان وقتئذ مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف ، فقبلها ، وبدأ يكتب في اللواء يوم ٣ مايو سنة ١٩٠٨ ، وافتتح أول مقالة بالكلمة السابقة .

* * *

عهد الكفاح المر

كان مصطفى كامل الزعيم الأول يحارب فى جبهة واحدة ؛ لأنه كان ينقم على الاحتلال ، يعاونه فى ذلك جمهور الأمة المصرية ، ويؤيده فى ذلك الخديو حاكم البلاد وأميرها . وكذلك كان الحال عندما تولى الزعيم الثانى محمد فريد ، كما ظهر ذلك من التهنئة الرقيقة ، والعروض السخية التى قابل بها الخديو انتخاب محمد فريد رئيساً للحزب الوطنى .

***

محاكمة الشيخ جاويش

اختار الزعيم (محمد فريد) صديقه الوفى المرحوم عبد العزيز جاويش ليكون رئيساً لتحرير « اللواء » فى عهده الجديد .

وحدثت ثورة فى السودان حوكم فيها عدد من السودانيين الثوار . وكان الشعب المصرى يتلهف لمعرفة أخبار هذه المحاكمة ، وتضاربت الأقوال فيها ، وفى عدد المحكوم عليهم .

... ونشر اللواء أخباراً عن هذه الثورة بأسلوب قوى يسىء إلى الاحتلال بعنوان [دنشواى أخرى فى السودان ، ٧٠ مشنوقا

و ١٣ سجيناً] . فسيق الأستاذ جاويش إلى المحاكمة ، ولكنه برئ في النهاية ، وكان لحكم البراءة دوى استحسان في البلاد .

ولا يمكننا أن نترك هذا الموضوع من غير أن نذكر كلمة عن المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بك ، وأثره في ترقية التعليم الأولى ، وتنفيذ تعليمات الحزب الوطني في النهوض به .

الشيخ عبد العزيز جاويش بك

تخرج الشيخ عبد العزيز جاويش بك في دار العلوم ، ودرس بانجلترا . وكان ذكي الفؤاد ، ممتلئاً حماسة ووطنية ، يود لبلاده الاستقلال والحرية . ويرى أن الذي ثبت أقدام الاستعمار في البلاد الجهل الفاشي : فأخذ يدعو إلى إنشاء مدارس ثانوية وابتدائية ، نهارية وليلية .

وقد أتاح له القدر فرصة إشرافه على التعليم الأولى والإلزامي بتعيينه مراقباً عاماً للتعليم الأولى ، فرأى بثاقب فكره ، وسامي عزمته ، وشريف غايته ، أن يتوسع في إنشاء المدارس الأولية والإلزامية في المدن والقرى ، وأن تغزو المدارس الإلزامية الريف المصري ، على أن تقوم هذه المدارس بتعليم البنات في الصباح ، ثم يليهن البنون حتى يتم تعليم أكبر عدد من البنين والبنات ،

فتستنير الأمهات والآباء ، ويقضى على الجهل المنتشر فى أرجاء البلاد وقتئذ .

ولو امتد به الأجل لنالت الأمة ما تصبو إليه من رقى فى الأفكار ، وقضاء على الجهل ، ومعرفة بالحقوق الوطنية ، ولكن عاجلته المنية ، فمات مأسوفا عليه ، بعد أن وضع أساساً للتعليم الأولى الذى تفرعت أنواعه ، فكان منه للفتاة مدارس التربية النسوية التى تنشد تخريج فتاة صالحة للمنزل ، وتربية الأبناء تربية صحية ووطنية ، والمدارس الريفية التى ترمى إلى تخريج شباب مسلح بالتعليم العملى الذى يؤهله للسير فى الحياة بجدارة . ولا يزال التعليم ينهض . ولو قدر له أن يشرف عليه رجال كعبد العزيز جاويش بك لقضى على الأمية فى البلاد ، ولاحتفلت الأمة بتشييع جثة آخر أمى فى البلاد قريباً .

إضراب عمال اللواء وتطوع الشباب فى إصداره

وحدث أن أضرب عمال اللواء بتحريض خصوم الحزب الوطنى يقصدون بهذا تعطيل هذه الصحيفة القوية التى لا تخشى فى الحق لومة لائم ، والتى تهاجم كل مقصر فى حقوق مصر .

وكان الخصوم يعتقدون أن صدور اللواء فى أثناء إضراب عماله

ضرب من المستحيل . وكانت هذه أول تجربة لهم . فإذا نجحت أعادوها ، وكرروا استعمالها .

ولكن « اللواء » تلك الصحيفة الوطنية صدرت في اليوم التالي كالمعتاد ، ولم تحتجب عن الظهور يوماً واحداً كما أراد الخصوم . فكيف كان ذلك ؟

علم الشباب المثقف من طلبة المدارس العليا بنبأ هذا الإضراب ، وعلموا مقاصد هذا الإضراب ونوايا الخصوم منه ، فأبطلوا كيد الكائدين ، وذهبوا متطوعين في دار « اللواء » يعملون في صف الحروف ، وإدارة المطبعة ، وخرجت الصحيفة في موعدها ، فخجل العمال المضربون ، وعادوا إلى عملهم صاغرين ، وأخفقت مؤامرة الخصوم المؤتمرين

مدارس الشعب الليلية

كان المرحوم محمد فريد بك غيوراً على مصر والمصريين ، فكان يهتم بالشئون السياسية لينقذ الوطن ، ويهتم بالشئون الاجتماعية لينقذ أبناء الوطن .

ورأى محمد فريد أن العامل المصري مشهور بالذكاء والنبوغ ، لولا أنه حرم نور العلم والمعرفة ، فسعى جاهداً ليتيح لهذا العامل

فرصة للترقى والمعرفة ، فبدأ بإنشاء المدارس الليلية لتعليم الفقراء والعمال بالمجان ، وفتحت أول مدرسة لذلك فى بولاق ، وبدأت الدراسة فيها فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، وألقى المرحوم أحمد لطفى بك (أحد أعضاء الحزب الوطنى) أول درس فيها .

تحدث الناس فى القاهرة وفى الأقاليم عن هذا المشروع العظيم ، وعن الغاية النبيلة ، والإخلاص العظيم الذى أخرجه إلى حيز الوجود . إنه زعيم سياسى جعل كل همه المطالبة بجلاء المحتلين عن وادى النيل ، ولكنه مهتم أيضاً بتربية المصريين ، وبخاصة العمال ، ليكون لمصر منهم جيل قوى .

ياله من زعيم ؟! إنه عدو الاحتلال ، عدو الجهل ، عدو للظلم . وإنه يحارب هؤلاء جميعاً وليس معه سلاح ، وليس معه جنود إلا همة نفسه ، وقوة صبره ، وصدق إيمانه ، ومحبته لبلاده ، وإخلاصه فى جهاده .

لم يكد الحزب الوطنى ينشئ المدرسة الأولى فى بولاق — وهى مدرسة الشعب — حتى انتشرت هذه المدارس فى أحياء القاهرة والأقاليم ، وتطوع للتدريس بها والقيام عليها نفر من أكرم المصريين ، وخيرة الشبان المتعلمين ؛ فنمت وترعرعت ، وشعر

العامل المصرى والصانع المصرى لأول مرة بأن مصر تحنو عليه ، وتعمل لرقيه وسعادته .

ولكى تعرف مبلغ عنايته بشئون العمال والصناع المصريين اقرأ ما قاله فى خطبة المؤتمر الوطنى بتاريخ من ٧ يناير سنة ١٩١٠ ، قال :

« ... ليصبح الصانع والمزارع فى مأمن من الفقر والتكفف عند الشيخوخة أو المرض يجب فتح المدارس الليلية فى المدن والقرى لتعليمهم حقوقهم وواجباتهم ، وتفهيمهم أهمية النقابات ، وشركات التعاون .

ولقد بدأ حزبنا المبارك فى تنفيذ هذه الفكرة ، فأنشأ فى العاصمة أربع مدارس للصناع ، فى أقسام الخليفة وبولاق وشبرا والعباسية ، تحوى كل منها نحو مائة وعشرين تلميذاً من حرف مختلفة ، وصناعات متباينة ، فتجد النجار بجانب صانع الأحذية ، وقاطع الأحجار يكاتف الطباخ ، وهكذا . وكلهم متشوقون للتعليم ، باذلون جهدهم فى التحصيل حتى إن الطالب منهم ليتمكن من القراءة والكتابة فى أقل من ستة شهور . وقد انتشرت هذه الحركة فى كثير من مدن القطر وقراه ، بفضل المخلصين العاملين من رجال الحزب الوطنى ومن غيرهم .

ولم يكتف أنصار العمال بذلك ، بل أسسوا بقسم الخليفة

(جمعية) للخطابة تعقد جلساتها مساء كل يوم خميس ، ليخطب فيها المعلمون والعمال أنفسهم بعبارة تكاد تكون صحيحة . ولقد حضرت إحدى هذه الجلسات مع بعض الإخوان ، وسمعنا ما ألقاه اثنان من أعضائها ، وهما من صانعي الأحذية ، وكان كلامهما دائراً على وجوب إتقان الصناعة لمواجهة الأجانب .

وسنسعى في عامنا هذا الجديد في تعميم هذه المدارس (والجمعيات) في أقسام المحروسة ... فعليكم إخواني بنشر مبادئ التعليم بين هذه الطبقة النصبة ، وتأسيس المكاتب الليلية ... وعلى الشبيبة الحرة التبرع بالقليل من وقتهم في إلقاء الدروس والمحاضرات النافعة ، حتى يترقى العامل الفقير ، ويدرك أن له حقا في أن يعيش عيشة لا كعيشة البهائم » .

أرأيت كيف كان الرجل مشغولا ؟

أرأيت كيف كان يحارب الاحتلال ، وأعوان الاحتلال من المصريين أنفسهم ؟

أرأيت كيف كان يضيق ذرعاً بمن يتعاونون مع الاحتلال ؟

أرأيت كيف كان يسعى لينهض بالصانع المصري ، والعامل المصري ، والفلاح المصري ؟ ويحاول بنشر العلم بينهم أن يزيل عنهم عار الجهل .

أرأيت كيف كان يتألم لشيخ يتكفف ، أو فقير يمرض ، أو عامل لا يجد عملا ؟ فسعى لتعليم الفقراء ، وإنشاء نقابات للعمال ؟

* * *

ألا ترى لذلك العمل الذى مضى عليه أكثر من ثلث قرن أثراً فى حياتنا الحاضرة ؟ ألا ترى أن جهوده فى نشر التعليم كانت أساساً لجهادنا فى نشر التعليم ، ومكافحة الأمية ، وتعميم التعليم الإلزامى ؟ ألا ترى أن قضية العمال التى تشغل الأذهان اليوم إنما أظهرها ودعا إليها المرحوم محمد فريد يوم كان العمال فى ظلام الجهل نائمين ؟

ألا ترى أن حركة التعاون ، وإنشاء النقابات ، والجماعات التعاونية إنما هى ثمرة غرسه ؟ !

علموا الأمة

طاف محمد فريد بمعظم دول أوروبة ، فزار فرنسا وألمانيا وسويسرة وبلجيكا والدانمركة ليرفع صوت مصر ، ويدافع عن قضية مصر .

وقد أدرك وهو بهذه البلاد أن المصريين لا يقلون ذكاء ولا نشاطا عن هؤلاء الغربيين ، وإنما سبقونا بالعلم ، ولا سبيل

لتقدمنا إلا بنشر التعليم بين طبقات الأمة ، لا فرق بين غني وفقير . فالعلم سبيل الحياة الصحيحة ، والحياة من حق الجميع !

وإنك لتعجب ويملؤك العجب حين تعلم أن محمد فريد هو المصري الأول الذي نادى بوجوب جعل التعليم الابتدائي إلزاميا بالمجان للبنين والبنات على السواء ، نادى بذلك في سنة ١٩١٠ ؛ أي منذ أكثر من ثلث قرن .

وبعد ثلث قرن من الزمان تحققت أمنية من أمانيه العظيمة في التعليم ، فجعل التعليم الابتدائي بالمجان . وإن فريقاً من المصريين لينكرون نشر التعليم يجادلونك في الحق بعد ما تبين .

قال رحمه الله في خطبة المؤتمر الوطني في ٧ من يناير سنة ١٩١٠ :

نشر التعليم الابتدائي :

« إن نشر التعليم الابتدائي بين جميع طبقات الشعب من أقوى الوسائل لترقية الأمة ، وأقرب السبل لإنالتها الحرية والاستقلال . ويجب أن يكون قصدنا جميعاً الوصول إلى جعل التعليم الابتدائي إلزاميا ومجانيا لكل مصري ومصرية . أقول مجانيا لأنه لا يمكن التوفيق بين الإلزام ودفع أجرة التعليم ؛ لأن جعله مجانيا للفقراء وبأجرة للأغنياء فيه جرح لعواطف الفقراء من التلاميذ الذين

يرون أنفسهم محتقرين فى نظر إخوانهم ومعلميهم .

فالديمقراطية الحقة ، والمساواة الحقيقية ، تقضيان بأن يكون التعليم الابتدائى مجانيا لجميع طبقات الأمة فقيرها وغنيها بلا تمييز ؛ حتى يشب التلاميذ على حسب المساواة ، ويعرفوا منذ نعومة أظفارهم أن لا تفاوت بين الناس إلا بخدمة الأمة ، وأن أقربهم إلى الله أتقاهم لا أغناهم .

ولا تنس أن التعليم الابتدائى وحده غير كاف لحاجة الأمة ؛ فإن الأمم لا ترقى إلا بالتعليم الثانوى والعالى اللذين يخرجان الطبقة الراقية التى عليها المعول فى إدارة الأمور العامة ... »

ذلكم هو منهاج محمد فريد فى النهضة التعليمية بمصر . وهو منهاج لو طلعت به علينا اليوم وزارة المعارف أو برلمان الأمة لكبرنا وهللنا وهتفنا .

نعم لقد نهضنا بالتعليم فى هذه الفترة نهوضاً عظيما . ولو كان محمد فريد حيا ورأى ثمار هذه النهضة لقر عيناً ، ونعم بالاً .

غير أننا يجب أن نعترف بأن هذه النهضة التعليمية إنما هى امتداد للحركة التى قام بها محمد فريد ، واستجابة للمطالب التى أعلنها فى خطبه . فكما أنه هو البادئ بحركة مكافحة الأمية فكذلك هو البادئ بحركة نشر التعليم الحق بين طبقات الأمة جميعاً .

حقا لقد قام محمد فريد وحده بما لم تقم به أمة .

الإصلاح الاجتماعي

التعليم — الفقر — الاقتصاد — التعاون

لم يكن محمد فريد من رجال السياسة فحسب ، بل كان مصلحاً وطنيا همه أن يرقى بوطنه ، وأن ينهض بالمصريين حتى يكونوا كغيرهم من الدول إن لم يسبقوهم .

كان يرى أن الحركة السياسية في البلاد يجب أن تسايرها حركات إصلاح : اجتماعية ، واقتصادية ، وتعليمية ، وتعاونية . بل كان يرى أن هذه الحركات يجب أن تكون شرطا للنجاح في القضية الأخرى وهي قضية الحرية والاستقلال والدستور .

لهذا سعى سعيه المشكور في إنهاض التعليم ونشره في البلاد .

أما الدستور الصحي فإليك بعض آرائه فيه في خطبة المؤتمر الوطني سنة ١٩١٠ : تكلم عن إهمال الحكومة للأحياء الوطنية بالقاهرة ، والشئون الصحية العامة ، ودعا إلى إنشاء مجلس بلدي بالعاصمة ، قال :

« ثبت بالإحصاء أن متوسط الوفيات في السنة يتراوح بين ٦٠ و ٨٠ في الألف ، مع أنها في لندرة ١٨ ، وفي باريس ٢٠ ،

وفى باقى مدن أوروبة الكبرى لا تزيد على ٢٥ فى الألف مطلقا .

وليس يرجع هذا إلى فقر الميزانية المصرية ، بل إلى إهمال مصلحة الصحة ، وصرفها المبالغ المخصصة لها فى الأحياء التى يقطن بها الإفرنج ، وإهمالها باقى الأحياء . فبينما تجد شوارع (جاردن ستى) بالقصر العالى مرصوفة ، وبها الأنوار تملأ حيث لا ساكن ولا أنيس ، تجد أحياء برمتها لا ينفذ إليها نور الشمس نهاراً ، ولا يوقد فيها مصباح ليلا ، ولا تعرف للكنس والرش اسما ، مع أن الكل سواء فى دفع عوائد الأملاك . ومن الظلم البين أن سكان الحارات يلزمون بإبقاء المصابيح على أبوابهم بمصروفات من طرفهم مع دفعهم العوائد ، وهذه الحالة ظاهرة للعيان ، لا تحتاج لشرح طويل فكلكم تشتكون منها ، كما تشتكون من كثرة وفيات الأطفال بسبب هذا الإهمال ، وتراكم الأوساخ فى الحارات وداخل البيوت ، ولا دواء لهذه الحالة السيئة إلا الإسراع بتأسيس مجلس بلدى ينتخبه السكان ، ولكن لا على طريقة الانتخاب المتبعة بالإسكندرية ! تلك الطريقة التى جعلت كلمة الأجنبى هى العليا ، وكلمة الوطنى هى السفلى ، بل على طريقة تضمن أن يكون لأصحاب البلاد النفوذ الحقيقى فيه ، فلا تبذر أموال المدينة على إنشاء شوارع بجهات لا سكان بها كشارع

البحر الأعمى الذى سيكلف الحكومة مئتين ألف جنيه ، وغير ذلك من الأعمال التى تستفيد منها بعض شركات المضاربة التى جرت الخراب على الأمة » .

ومن هذا المنهاج الصحى نستفيد عبرا كثيرة :

فإنشاء مجلس بلدى بالقاهرة فكرة نادى بها عشرات النواب والشيوخ ، وطالبت بها الصحف ، وكتب فى ذلك تقارير ومذكرات ، وانعقدت لها لجان فى أوقات مختلفة .

ولكن المصرى الأول الذى نادى بذلك هو محمد فريد . نادى بذلك فى خطبته بالمؤتمر الوطنى سنة ١٩١٠ ، فكان أول نداء للإصلاح فى هذا الموضوع .

وإنه لفخر كبير لهذا الرجل أن ينادى بإنقاذ الطفولة فى بلد كان الطفل فيه نسيا منسيا . أفتراه جديرا بأن نسميه واضع النواة الأولى لجمعيات إنقاذ الطفولة ، والطفولة المشردة ؛ لأنه نور الرأى العام فى مصر ، ونبهه إلى الخطر العاجل والآجل ، من كثرة وفيات الأطفال عندنا ، وموازنته بين مصر وغيرها من الدول ؟

سبحانك ربى هذا رجل يعمل عمل أمة !

أفلا ترى معى أيضا أن هذا الرجل شعبى بطبعه ، إذا تكلم عن المساواة والديمقراطية فإنما يتكلم عن صفات أصيلة فيه

لا يتخذها ألفاظا للتجارة السياسية ، والسجل السياسي ، وهو عن حقيقة مدلولها بعيد .

هذا الرجل العظيم ، (ابن الباشا الكبير) ، الغني صاحب الثراء والجاه ، يخرج من فيه كلام هو نفس الكلام الذي ينطق به لسان الشعب ، ويشرح آلامه ، فإذا بها نفس الآلام التي يحس بها أفراد الشعب حين يوازن بين الأحياء الوطنية ، والأحياء الأخرى كجارة دن ستي .

سبحان ربي — هذا رجل من سكان القصور ، فمن ذكره بسكان الحارات ؟

الإصلاح الاقتصادى

الميزانية :

« لا يمكن لمجلس الشورى أن يفحص عن الميزانية فحصا جديا إلا إذا قدمت إليه فى أول انعقاده ، وفحص عنها فى جلساته العمومية بنفسه أو بلجنة من أعضائه تنتقدها بابا بابا ، وفصلا فصلا ، وتوازن بين ما تنفقه مصر وما تنفقه الدول المتمدنة كفرنسا مثلا ، وتوازن بين رواتب الموظفين الكبار هنا وهناك ، لترى أن مال المصريين أصبح نهبا لمن طلب ؛ إذ ترى القلم له مراقب ورئيس ونائب رئيس ومساعد نائب رئيس ، ومع هؤلاء الرؤساء الأربعة كاتبان أو ثلاثة .

والأمثلة على هذه التصرفات كثيرة لا يتحمل نطاق هذه المقالة شرحها ، وسيقوم اللواء بهذه المهمة خدمة للأمة » .

هذا بعض ما قاله محمد فريد عن الميزانية فى خطبة المؤتمر الوطنى سنة ١٩١٠ . ولقد هاله رحمه الله أن يرى أموال الدولة تنفق بلا رقيب أو محاسب على رئيس ومساعد للرئيس ، ونائب للرئيس ومساعد لنائب الرئيس .. الخ وكاتبين أو ثلاثة ...

فليته كان معنا الآن ليرى كيف أن الأمر قد تجاوز كل حد ، وأن الكتاتيب أو الثلاثة أصبحوا عشرة أو عشرين .

الضمير :

وتكلم عن فداحة الضرائب التي تصيب الفلاح بالنسبة لمجموع المولين ، فقال :

« ومن الغريب أن التجار لا يدفعون شيئا ، وكذلك المصارف وأصحاب الأموال المنقولة . فمن اشترى بجميع أمواله أسهما من البنك العقاري أو الأهلي مثلا لا يدفع للحكومة شيئا ، في حين أن الفلاح الصغير الذي يملك قيراطا أو قيراطين يدفع ثلث إيراده . وإذا نقص المحصول أو أكلته الدودة باع ماشيته لدفع غائلة الصراف ، ومنعه من بيع ملكه تسديداً لمال الحكومة الذي يبذر باليمين والشمال . فيجب على الكتاب والخطباء أن يطرقوا هذا الباب ، ويشرحوه شرحا وافيا ، حتى يقف الرأي العام على ما يصيب الفلاح من الظلم الفادح بتحمله ما يقصم ظهره من الضرائب ... ويجب على المشتغلين بتشكيل النقابات الزراعية أن يهتموا بإيجادها (وتكوينها) حتى تشتغل بتخفيف الضرائب عن الأطيان ، وتحسين حالة الفلاح المسكين الذي يكد طول

سنته هو وزوجته وأولاده ، ولا يحصل إلا على القوت الضرورى من الذرة . و إذا نقص محصول القطن عن سداد ما عليه من الإيجار أخذ منه محصول الذرة كله أو بعضه .

فانظروا إلى هذا الفلاح التعس الذى عليه أساس العمران بمصر ، والذى لم تتغير حالته المعاشية بل هى حياة بؤس وشقاء ، وجهل لا يماثله فيها فلاح آخر . الفلاح المصرى أتعس فلاح فى العالم ، أتعس من الفلاح الروسى الذى يضرب بشقائه المثل . ولا خلاص له من هذه الحالة إلا بنشر التعليم الابتدائى وجعله إجباريا ، وبتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوقه أمام الحكومة ، وأمام الملاك الذين يزيدون عليه الإيجارات بمناسبة و بغير مناسبة ، وأمام المرابين الذين يأخذون ما يبقى لهم من جشع الملاك وظلم الحكومة » .

أستغفر الله ! الفلاح الروسى الذى يشير إليه هذا الزعيم قد تطورت به الأيام والأحداث ، فخلق لحيته الطويلة ، واشتغل فى حقله بالآلات الحديثة ، فزاد إنتاجه ، وحسن حاله ، وتعلم تعليما إجباريا بالمجان ، فأتيحت له الفرصة للترقى . و بهذا استطاع الفلاح الروسى هو وصاحبه العامل الروسى أن يعاونا الجيش الروسى على إبادة الجيوش الألمانية التى زودها العلم بكل سلاح .

وبقى الفلاح المصرى المسكين هو المثل الوحيد للذل والمرض والفقر والجهل .

على أن الحكومات المتعاقبة بدأت تنفذ ما أشار به محمد فريد من تخفيف الضرائب عن صغار الفلاحين ، ومحو الأمية بين أبنائهم ، ولكننا نتوق إلى إصلاح شامل ، يجعل من الفلاح المصرى قوة أساسها الصحة والعلم . ويجب أن يستخدم الآلات الزراعية فى تخفيف أعبائه ، والاقتصاد فى وقته ، حتى تتاح له فرصة يستزيد فيها من المعرفة ، وينظر خلالها إلى الحياة .

ماذا يؤرقنى

كان محمد فريد يطيل التفكير فتظهر على وجهه علامات الحزن والكآبة . وكثيراً ما كان يقضى ليله ساهراً مفكراً محزوناً محسوراً ، فماذا أهمه ؟ وماذا أحزنه ؟

ثلاث كلمات هى التى أقلقته ، وشغلت كل وقته وتفكيره ، وهى : الدستور ، والصحافة ، والجلاء .

الدستور — الصحافة — الجلاء

فأما الدستور فقد تقدم بطلبه إلى الخديو ، وهو حاكم البلاد الشرعى .

وقد أيدته الأمة المصرية فى طلبه ، فكتبت مئات من العرائض ، وفيها كلها تلتمس من الخديو الدستور .

وأما الصحافة فكانت هى المنبر الذى يذيع الأحرار عليه أفكارهم ، وهى مدارس الشعب يتلقى عليها الناس دروس الوطنية فى الصباح وفى المساء .

لهذا لم يكن عجيباً أن تعمل الحكومة إذ ذاك على تقييدها ، والحد من حريتها ، فوضعت قانوناً يقضى بإحالة تهم الصحافة إلى محاكم الجنايات ، بعد أن كانت من اختصاص محاكم الجنح .

وكان من النتائج الأولى لإحالة جنح الصحافة إلى محاكم الجنايات أن حوكم فريد أمامها وحكم عليه كما سيأتى .

وأما الجلاء فقد تقدم بطلبه إلى المحتلين أنفسهم ، وجعل الاحتلال قضية تولى هو الدفاع عنها ، واستمان فى كسب قضيته بتنوير الرأى العام فى بلاد المحتلين أنفسهم ، وتنوير الرأى

العام فى أوروبة ، حتى يكون للقضية المصرية أنصار فى كل عواصم أوروبة الغربية .

وذهب الغاية سافر إلى أوروبة ، وطاف بمعظم عواصمها ، وأقام الولائم والحفلات ، وألقى الخطب والبيانات ، فأحدثت هذه الحركة ضجة ، وأصبحت لمصر قضية تحدثت بها الصحف الغربية ، والأحرار الغربيون ، والبريطانيون أنفسهم .

حبس الزعيم

الاستعمار قد نجح فى إيجاد سياسة الوفاق ؛ فأصبح الخديو يسعى جاهداً ليبقى على هـذا الود البارد ، فهو يصطفى من المصريين من يؤيدون هذه السياسة ، وأغلب الظن أنه قد وجد من بين المصريين عدداً غير قليل أيدوه وناصروه .

فأما الوزارة فكان همها أن تناصر الإنجليز ، فإذا انضم إليها الخديو وفريق من المصريين الذين لم يصل ماء النيل إلى قلوبهم فيطهرها قوى عضدها ، واشتد ساعدها ، وهان عليها أن تنصب شباكها للعبث بالمجاهدين ، وكم أفواه الأحرار . ومن يعنيها من الأحرار والمجاهدين إلا محمد فريد و بعض أصحابه ؟

ولقد وفقت الوزارة بقوة الإنجليز وتأييد الخديو إلى إسكات محمد فريد .

ما أقوى الخصوم وما أضعف الخصم !

أستغفر الله بل ما أقوى الخصم ! وما أضعف الخصوم !

لقد كان فريد قويا بحقه . وكان الخصوم ضعافاً بباطلهم . هذه الأمة تؤيده ، وهذا الحق يسنده ، وهذا القانون يحميه .

والحكومات الجائرة تلجأ فيما تلجأ إلى القوانين فتغيرها وتبدلها ، وتحذف منها وتزيد عليها ، حتى تجعلها أداة إرهاب وتعذيب .

وكان من نتيجة العبث بالقوانين ، والتعنت فى تطبيقها ، والإصرار على التحدى والظلم ، أن سجن محمد فريد ستة شهور كاملة ، قضاها بين جدران السجون كما لو كان مجرماً آثماً .

وإنك لتضحك وتفرق فى الضحك ، أو تبكى وتفرق فى البكاء ، أو ترثى وتجيد الرثاء ، إذا عرفت بواعث هذه المحاكمة ، وأسباب هذا السجن ، وشر المصائب ما يضحك .

درس فى الوطنية

أرأيت أيها القارئ الكريم أو سمعت أن زعيما كمحمد فريد يحاكم ويسجن لأنه كتب كلمة هى اليوم مما يدرس فى المدارس ،

وينشر فى الصحف والمجلات ؟ اقرأ هذه الكلمة ؛ لتعجب : كيف حكمت المحكمة بسجن قائلها ؟

« تأثير الشعر فى تربية الأمم »

« الشعر من أفعل المؤثرات فى إيقاظ الأمم من سباتها ، وبث روح الحياة فيها ، كما أنه من المشجعات على القتال ، ومن حكم الإقدام والمخاطرة بالنفس فى الحروب . ولذلك نجد الأشعار الحماسية من قديم الزمان شائعة لدى العرب وغيرهم من الأمم المجيدة كالرومان » .

« وليس من ينكر أن الأنشودة الفرنسية التى أنشأها الضابط الفرنسى « روجيه دى ليل » وسميت المرسيليز ، كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوروبة ، الذين تألبوا لإخماد روح الحرية فى مبدأ ظهورها »

« لذلك كتب الكاتبون منا كثيراً فى ضرورة وضع القصائد والأغانى الوطنية ليحفظها الصغار ، ويترنموا بها فى أوقات فراغهم ، ولينشدوها فى ساعات لعبهم ، بدل هذه الأغانى والأناشيد التى يرددها أطفال الأزقة خصوصاً فى ليالى شهر رمضان المبارك ، كما كتبوا فى لزوم تغيير الأغانى التى تنشد فى الأفراح ، وكلها دائرة

حول نقطة واحدة هى الغرام ، ووصف المحبوب بأوصاف ما أنزل الله بها من سلطان » .

« لقد كان من نتيجة استبداد الفرد ، سواء فى الغرب أو فى الشرق ، إماتة الشعر الحماسى ، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح البارد ، والإطراء الفارغ ، للملوك والأمراء والوزراء ، وابتعادهم عن كل ما يربى النفس ، ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال . كما كان من نتائج هذا الاستبداد خلو خطب المساجد من كل فائدة تعود على المستمع ، حتى أصبحت كلها تدور حول موضوع التزهيد فى الدنيا ، والحض على الكسل ، وانتظار الرزق بلا سعى ولا عمل » .

« تنبهت لذلك الأمم المغلوبة على أمرها ، فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية ، والأناشيد الحماسية باللغة الفصحى للطبقة المتعلمة ، وباللغة العامية لطبقة الزراع والصناع وغيرهم من العمال غير المتعلمين . فكان ذلك من أكبر العوامل على بث روح النهضة الوطنية بين جميع الطبقات » .

« ويسرنى أن هذه النهضة المباركة سرت فى بلادنا ، فترك أغلب الشعراء نظم قصائد المديح للأمراء والحكام ، وصرفوا همهم ، واستعملوا مواهبهم فى وضع الأشعار الوطنية ، وإرسالها فى

وصف شئون السياسة التى تشغل الرأى العام . وقد لاحت (وطنيتى فى طليعة هذه النهضة الميمونة الرشيدة) » .

« ومما يزيد سرورى أن شعراء الأرياف وضعوا عدة أناشيد وأغان فى مسألة دنشواى ، وما نشأ عنها ، وفى المرحوم مصطفى باشا كامل ومجهوداته الوطنية ، وفى موضوع قناة السويس ورفض الجمعية السويسية لمشروعها . وأخذوا ينشدونها فى سمرهم وأفراحهم على آلاتهم الموسيقية البسيطة ؛ وهى حركة مباركة إن شاء الله ، تدل على أن مجهودات الوطنيين قد أثمرت ووصل تأثيرها إلى أعماق القلوب فى جميع طبقات الأمة ، ويبشر باقتراب زمن الخلاص من الاحتلال بإذن الله » .

« فعلى حضرات الشعراء أن يقلعوا عن عادة وضع قصائد المديح فى أيام معلومة ، ومواسم معدودة ، وأن يستعملوا هذه المواهب الربانية العالية فى خدمة الأمة وتربيتها ، بدل أن يصرفوها فى خدمة الأغنياء ، والتملق للأمراء ، والتقرب من الوزراء . فالحكام زائلون ، والأمة باقية ، والسلام على من سمع ووعى ، ووفق لخدمة بلاده وسعى ، فإن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

محمد فريد

هذه هي الكلمة التي حوكم المرحوم محمد فريد من أجلها .

قرر ما يقرره كل النقاد من أن الشعر يجب أن يكون في طليعة كل نهضة ، يحدوها ويثيرها ، وينفخ فيها ويوجهها .

وقرر أن الشعراء الذين لا يفتأون يصيحون بقريضهم ونظمهم حول قصور الأغنياء وموائد العظماء إنما يخدمون بطونهم ، ويبيعون مواهبهم رخيصة لقاء لقمة رخيصة زهيدة .

وقرر أن الأدب الشعبي هو غذاء الشعب الروحي والوطني ، وأنه يجب أن يعنى بهذا الأدب ، وبالأغاني الشعبية ومراميها .

وقرر أن الأدب إذا خلا من القوة الروحية ، والغاية النبيلة ، أصبح قليل الجدوى .

وهذا الذي كتبه محمد فريد وحوكم من أجله هو هو الذي يشغل بال المصلحين المصريين الآن ، ويعملون على إشاعته في الناس ، وإذاعته بينهم في المدارس والمساهد ، وفي الصحف والمجلات والمؤلفات .

ولكن حكومة العهد البائد رأت فيه ما يستحق العقاب ، ويستوجب المحاكمة .

كان هذا الدرس الوطني الأدبي الجليل مقدمة لديوان للشيخ علي الغاياتي ، ظهر في سنة ١٩١٠ ، فحوكم صاحب الديوان ، وحوكم

مقرظ الكتاب الشيخ عبد العزيز جاويش ، فلم يكن بدٌّ من محاكمة صاحب المقدمة وهو محمد فريد .

ولكن فريداً كان غائباً فى أوروبة ، يدعو الناس ويجمعهم ويخطب فيهم ، ويشرح لهم قضية الوطن المغصوب ، ينتقل من عاصمة إلى عاصمة ، ويعلو منبراً بعد منبر ، ويثير القوم فى حرب أوروبة لتحرير مصر ووادى النيل .

كان فريد مشغولاً بالقضية الكبرى فى أوروبة ، ولكن الوزارة المصرية كانت مشغولة بهذه القضية تدبرها وتحوك حبائلها ، وتنصب الشباك لتصطاد هذا الفريد بمجرد عودته إلى أرض الوطن . وكان هذا هو الجزاء الذى تقدمه الأمم لزعمائها وأبطالها ، حين يعودون من مشقة الجهاد متعبين مكدودين !

ألا فى سبيل الله جهادك أيها البطل ، وفى سبيل الله ما أنفقت من وقت وجهد وصحة ومال .

كان النائب « محمد توفيق نسيم » يستعد وفريد فى أوروبة للتحقيق معه بمجرد حضوره . وأغلب الظن أن نسيم « باشا » أجهد نفسه ، وكدّ خاطره ، وأعياه البحث ، والتمست فى البحث عن عبارات يقدم بها فريد للمحاكمة على قول يستحق عليه التكريم .

لا ندرى ماذا قال محمد توفيق نسيم فى اتهامه لفريد ؟ ولكننى أعلم أنه وقف يتكلم أكثر من نصف ساعة .

لا جرى النيل فى نواحيك يا مصـ
ـر ولا جادك الحيا حيث جادا
أنتِ أنبتِّ ذلك النبتَ يا مصـ
ـرُ فأضحى عليك شوكا قتادا
أنتِ أنبتِّ ناعقاً قام بالأمـ
ـس فأدمى القلوب والأكبادا

ويسيق فريد إلى السجن ، فقضى فيه ستة شهور كاملة . وكان هذا بمثابة تكريم له عقب عودته من أوروبة .

ولكن هذه المحاكمة دلت على مسائل كثيرة :

دلت على أن الحكومة المصرية فى ذلك الوقت كانت حرباً ضد الحركة الوطنية ورجالها . فإذا عذرنا الإنجليز لأنهم يخدمون بلادهم ، فلا عذر للحكومة المصرية ورجالها .

إن الأمة المصرية كانت فى يقظة ، وإن الشعور الوطنى كان على أشده ، وإن التعليمات الوطنية التى نادى بها فريد قد أثمرت .

انظر إلى تلك الرسالة الصغيرة التى كتبتها إحدى كريمات الزعيم وهو فى أوروبة تدعوه للحضور إلى مصر فتقول :

القاهرة فى ١٤ من أغسطس سنة ١٩١٠ :

« ..... ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش ، فذلك أشرف من أن يقال إنكم مستبدون ، وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم ... وأختم جوابى بالتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية التى تضحون بكل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا ، وتتحملوا آلام السجن » .

وكان ذلك ردا على إذاعة المرجفين ، وكانوا يتمنون أن تكون هذه المحاكمة سبباً فى بقاء الزعيم بأوروبة بعيداً عن بلاده . فأما يقظة الرأى العام وتنبه ضمير الأمة ، فيظهران من القصائد التى أرسلها الشعراء فى هذا الوقت تعبيراً عن شعورهم نحو الفقيد .

قال الشاعر العظيم أحمد نسيم بعنوان :

إلى الرئيس فى سجنه

يا ليت سجنك لم يكن بمقدّرٍ ... فاصبر على المقدور ستة أشهر

إنى نظرتك فى اتهامك واثقاً ... فظننت أنك واقف فى المنبر

لتقولَ شعبى أو بلادى إننى ... لهوا كما بين اللظى المتسعّر

لو كنتَ ممن تاجروا بضميرهم للعبت لعباً بالنضار الأصفر
أو كنت ممن يطلبون مراتباً لشأوتَ في العلياء نجمَ المشتري

* * *

يكفيك عطف العالمين ووجدهم من أكبر بطأ الثرى أو أصغر

وقضى محمد فريد هذه المدة في السجن يتلو القرآن الكريم ، ويدرس اللغة الألمانية ، ويطالع الكتب

محمد فريد في السجن

ثارت الخواطر في مصر جميعها لهذا الحكم الجائر بحبس الزعيم ، وشعر الوزراء وأنصارهم أنهم ارتكبوا أمراً عظيما ، وأن الرأي العام يقظ ومتنبه ومستنكر لهذا الحادث .

فأذاعوا أنهم يرغبون في إصدار عفو عنه . وفعلا بدأت المفاوضات في ذلك :

ففي أحد الأيام نودي الزعيم محمد فريد من غرفة سجنه ليقابل مدير السجون ، ودار بينهما الحديث التالي :

كولس باشا (مدير السجون) : هل هناك ما تشكو منه يا حضرة الرئيس ؟

ليس عندى ما أشكو منه والحمد لله .

هل أستطيع أن أهيئ لك بعض أسباب الراحة ؟

فأبدى له الرئيس بعض ملاحظات أجابه إليها .

كولس باشا : أرجو حضرة المأمور أن يتنحى جانبا .

فانتحى المأمور ناحية .

ألا ترى يا حضرة الرئيس أن من كان فى سنك يحتاج إلى الراحة فى بيته وبين أبنائه بدلا من التشريد فى السجون ؟

فريد : لا بد للمجاهدين من التشريد والتعذيب .

مدير السجون : ولكن فى إمكانك أن تتقى كل هذه المتاعب لو خلدت إلى السكينة ، وغيرت خطتك . وحينئذ تخلى سبيلك حالا ، وتعود إلى بيتك وأبنائك .

فريد : إن ما تطلبه مستحيل .

مدير السجون : إنى لا أطلب منك تغيير مبادئك ، بل تخفيف لهجتك .

فريد : إن هذا مستحيل .

مدير السجون : أنت تريد إذا قضاء الشهور الستة كلها فى السجن .

فريد : نعم ، وأزيد عليها يوما إن أردتم .

فأدرك (كواس باشا) أن لا سبيل إلى مساومته ، وانصرف .

و بعد بضعة أسابيع زاره فى السجن رسول موفد من قبل الخديو ليعرض عليه مسألة العفو ، وطلب إليه أن يكتب طلباً بذلك . فأبى الزعيم ، ولام الرسول على محاولته تلك . وقال له : « أنا لا أطلب العفو ، ولا أسمح لأحد من أسرتى بطلبه عنى . و إذا صدر العفو فلن أقبله » .

بعد السجن

لم يكن السجن لينال من زعيم مثل محمد فريد ، أو يضعفه ، أو يوهن من عزمه ، ولكن زاده حبا للنضال ؛ فقد كتب يوم خروجه من السجن مقالا يدل على إيمانه بحق الوطن ، و بالقضية التى يعمل لها ، ويعيش من أجلها . قال بعنوان :

من سجن الى سجن

« مضى على ستة أشهر فى غيابات السجن ، ولم أشعر أبدا بالضيق إلا عند اقتراب أجل خروجى ، لعلمى أنى خارج إلى سجن آخر ، هو سجن الأمة المصرية ، الذى تحده سلطة الفرد ، ويحرسه الاحتلال » .

obeikandl.com

«نعم إن كل أمة هضم حقها ، وحرمت دستورها ، واستبدت بإدارتها حكومة فردية تعززها الجيوش الأجنبية على أمة سجينة ، ما دامت أمورها بغير يدها ، تحكمها وزارة لا تتفق أعمالها مع شعور الأمة ، ولا مع حاجات البلاد . ويقول عنها عميد المحتلين أن لا وظيفة لها إلا تنفيذ نصائح (أى أوامر) حكومة جلالة الملك» .

«حقيقة لم أشعر بأى انشراح عند حلول أجل مفارقتى لهذه الغرفة الضيقة التى قضيت بها ستة أشهر قمرية ، أى مائة وستا وسبعين ليلة كاملة ؛ لعلمى أنى خارج إلى سجن أضيق ، ومعاملة أشد ؛ إذ أصبح مهددا بقانون المطبوعات ، وبمحكمة الجنايات ، بجرم القضايا التى منحها القانون العام للقتلة وقطاع الطريق . فلا أثق أبدا لأسرتى إن صدر منى ما يؤلم الحكومة من الانتقاد ، بل ربما أوخذ من محل عملى إلى النيابة ، فالسجن الاحتياطى ، فمحكمة الجنايات ، إلى السجن النهائى . وستبقى حالتنا كذلك حتى نسترد الدستور ، وتفى انجلترا بوعودها المتكررة ، فتجلو عن بلادنا» .

«قضيت هذه المدة فى السجن دون أن أشعر بأقل ضيق . وكنت كلما شعرت بأن شيطان الضجر يسعى إلى أن يجد إلى نفسى سبيلا ، تذكرت ما قاساه خدام الوطن فى كل البلاد مثل

الإيطاليين والفرنسيين ، وأحرار الأتراك فى عهد عبد الحميد . ومايقاسيه الآن أحرار بولونيا والروسيا فى سيبريا وفى السجون من أنواع العذاب ، كالضرب بالسياط ، والموت جوعا ، وهلم جرا . . . »

« فأقول فى نفسى إن هذا الحبس لاشىء فى جانب حبى لمصر ، أمى العزيزة ، فيذهب عنى الضجر ، وتزداد عزيمتى اشتدادا » .

« وحكم على بالحبس ، فلقيت من قومى عطفا عظيما ، ومن جميع الجرائد المحلية على اختلاف مذاهبها ، وتباين لغاتها ، ميلا شديداً ، ومن جرائد أحرار العالم الأوروبى ، والعالم الإسلامى أجمع تقديراً لحكم محكمة الاستئناف ، لم يسمح قانون المطبوعات لجرائدنا بنقله ؛ فوجب على شكرهم أجمعين شكراً جميلا » .

« فلن أعداء الحزب الوطنى وخشى محبونا أن يكون للحبس أقل تأثير فى سير الحزب ونموه ، وانتشار مبادئه الحقة بين طبقات الأمة ، ووصولها إلى أعماق قلوبها ، ولكن لله الحمد ؛ فقد برهن حزبنا فى أثناء اعتقالى بين جدران هذا السجن على أنه حزب الوطن ، حزب الشعب ، لا يؤثر فيه حبس رئيس ، كما لم يقف سيره موت مؤسسه رحمه الله . فإن حبس أو مات رئيس قام بدله رؤساء متضافرون على مؤازرته ، متعاونون على نصرته ،

عاقدون الخناصر على الوصول به إلى غايتنا وغاية كل وطني — ولو كان منافقا — هي الجلاء والدستور »

المؤتمر الوطني

اجتمع للمؤتمر الوطني (الجمعية العمومية السنوية للحزب الوطني) صباح يوم الجمعة ٢٢ من مارس سنة ١٩١٢ ، بدار العلم برئاسة الزعيم محمد فريد ، وقد ألقى فيه خطبة جامعة كانت آخر خطبة ألقاها بمصر قبل الحرب العالمية الأولى قال :

« يقول أعداء الحزب الوطني إن همته قد فترت ، وإنه لم يحتمل ما أصابه من حبس بعض أعضائه أولاً ، ومن تعطيل لسان حاله (العلم) ثانيا ، وإن أعضاءه أخذوا في الانزواء ؛ خوف اضطهاد الحكومة ، لا سيما بعد مجيء اللورد كتشنر معتمدا لانجلترا في مصر .

تلك أمانيهم ، ولكنها بعيدة عن الحقيقة بمراحل . حزبنا قوة لا يمكن لقوة في العالم أن توهنه كما يتمنون . وقد ظهر ذلك عند ظهور العلم ، وعودة اللواء إلى حالته الأولى ، وإقبال القراء عليهما ، وعلى باقي جرائد حزبنا .

نعم إن الحزب الوطني تتجسم فيه فكرة الوطنية الحقة ،

والفكرة لا يمكن وقفها ... وقد صرحنا غير مرة فى جرائدنا ومن أعلى هذا المنبر بأننا نحارب هذا الاحتلال الأجنبى ، دون نظر لشخص ممثله ولسياسته ، إن كانت سياسة شدة أو لين ؛ فجميعهم يرمون لغاية واحدة هى امتلاك بلادنا ، واستعباد أبنائها . فليقل أعداؤنا ماشاءوا ؛ فنحن سائرون إلى الأمام » .

و بعد أن أشار إلى جملة مسائل تتعلق بالتعليم والاقتصاد وغيرهما ، ختم خطابه بقوله :

« اللهم طهر قلوبنا من أدران النفاق ، ونق أفئدتنا من جراثيم الخنوع والاستسلام ، حتى ندرك أن لنا كرامة تجب المحافظة عليها ، ووطنا يجب الدفاع عنه بالأنفس والأموال ، وحقا فى الحرية يجب المطالبة به . إنك أنت الوهاب . »

وقد أصدر المؤتمر عدة قرارات كان من أهمها :

(١) تجديد الاحتجاج على الاحتلال ، وإرسال برقية بذلك إلى وزير خارجية إنجلترا .

(٢) المطالبة برد الدستور إلى الأمة ، وإرسال برقية بذلك إلى الخديو .

محاكمة الزعيم المرة الثانية

بعد انعقاد المؤتمر الوطنى ، وخطبة الزعيم فيه بيومين اثنين فقط ، دعى محمد فريد إلى النيابة للتحقيق معه فى بعض فقرات وردت فى خطبته تلك ، عدتها تحريضا على كراهية الحكومة .

وعرف الناس فى ذلك الوقت أن الحكومة عزمت على أن تبحث للزعيم محمد فريد عن سلسلة من التهم ، تجعله رهن السجون لا يخرج من تهمة إلا إلى تهمة ، ولا يغادر سجنا إلا إلى سجن .

ولم يكونوا يقصدون بذلك إيذاء الفقيد فى صحته ، أو فى حريته الشخصية ، وإنما كانوا يرمون إلى غرض واحد ، هو قتل الحركة الوطنية ، وإطفاء المشعل الوطنى الذى كان الفقيد يحمله .

ولما كان الفقيد يحرص على ألا يخفت صوت مصر ، وألا ينطفئ مصباح الحرية ، رأى أن يهاجر إلى بلاد يسمع فيها صوته ، وينطلق فيها لسانه .

الهجرة

وماذا بقى لهذا الزعيم من أعمال المجاهدين إلا أن يكون

مهاجرا ؟ لقد هاجر إبرهيم ، وإسماعيل ، وموسى ، ومحمد ، فكان لهجرتهم دويٌّ في التاريخ .

لقد أوذي محمد في وطنه مكة ، ولقد آذاه أهله وذوو قرابته ، فهاجر إلى المدينة ، ليجهر بكلمة الحق ، ولينصر عقيدة التوحيد ، وليحارب الكفر والظلم والعناد .

لقد نكلوا بفريد أشد تنكيل . عطلوا صحيفته التي تنادي بمبادئه ، وتنشر آراءه ، وآذوا أصحابه ، وسجنوهم وشردوهم . وآذوه هو فسجنوه وأغرموه ، فلم تلن قناته ، فصمموا على سجنه كلما ظهرت منه مقاومة .

فليهاجر فريد كما هاجر الأنبياء والمرسلون والمصلحون . وليهاجر إلى تركيا .

كان زميله في الجهاد الشيخ عبد العزيز جاويش قد سبقه إلى تركيا . فلما نوى فريد أن يهاجر اتفق مع صديقه (إسماعيل لبيب) على أن يسافرا معاً .

ولم يكن السفر هينا ليناً ؛ فإن للرجل زوجاً وأولاداً وأسرة وأهلا . كيف يفاجئهم بهذا الخبر ؟ كيف يزعجهم بهذا النبأ ؟ وإن للحكومة عيوناً يتتبعون خطاه ، ويعرفون سره ونجواه . فكيف يفلت من يد الحكومة وهي الحريصة على القبض عليه ؟

لقد أوى إلى مضجعه ليلة السفر ، وأخبر زوجه بحقيقة الخبر ، وأنبأها أن الحكومة تنوى سجنه ، وأن له قضية فى النيابة ، لا بد أن تكون نتيجتها الحبس ؛ وأنه لا مفر من الهجرة ؛ ليفلت من القوم الظالمين ، وليدافع عن بلاده فى جو هادئ حر .

وكانت زوجه مثالاً فى الوفاء لزوجها ولوطنها ، فوافقته على فكرته ، وأيدته فى هجرته ، وتوجهت إلى الله بقلبها ولسانها أن يرزقها الصبر ، وأن يعينه فى هجرته .

وبكت قلوبهما بلا دموع ، وكل منهما يشجع صاحبه ، ويطمئن خاطره . وإن للفراق لوعة ، وإن للاغتراب لحرقة .

وغادر منزله فى صبيحة يوم الثلاثاء ٢٦ من مارس سنة ١٩١٢ بعد أن ودع زوجه ، وطلب إليها ألا تخبر أولاده بحقيقة هذا السفر ، وألا تطلعهم على صحف الصباح ؛ لأنها أذاعت شيئاً عن تحقيق النيابة مع والدهم ، وهو يخشى أن يقرءوا هذا الخبر فيفزعوا .

ركب الزعيم القطار وقلبه الكبير ملوء هماً وحزناً . هذا البيت الكريم غادره سيده فهل يعود إليه ؟ هذا العش من يرعاه بعد اليوم ؟ وهذه الأفراخ كيف تستقبل الصباح والمساء ، وقد ذهب السند المين ؟ هؤلاء البنون وهؤلاء البنات نائمون فى مخادعهم ، غافلون عما يراد بهم فى هذا الصباح المزين . أترى

قلوبهم الطاهرة البريئة قد أحست فى نومها آثار هذا الفراق المكتوب .

هذا الوجه الكريم الذى يحبونه لن يروه اليوم كما تعودوا . فهل يرونه بعد غد ؟ هذا القلب الحنون الذى ينبض حناناً عليهم ، ويشع عليهم من حنانه أين هو ؟

هذا المجاهد الذى يبذل نهاره وشطراً من ليله فى خدمة وطنه أين هو ، ليأوى إلى فراشه ، وقد هجع جميع الناس ، وأووا إلى مضاجعهم ؟ قامت كريمته فائقة من نومها تبحث عن أبيها فلم تجده ، وكانت صغيرة السن ، لم تتجاوز التاسعة من عمرها . وقد تعودت أن تقبل والدها كل صباح ، وأن تلقى من والدها السماحة والندى .

لكن فى هذا الصباح فتشت فى زوايا البيت فلم تجده ، وسألت أمها عنه ، فلم تجبها أمها ، وتشاغلت عنها والقلب مشغول ، والذهن مشرد .

وقامت حميدة فقالت لأختها إن (بابا) قد سافر إلى الإسكندرية وسيعود فى المساء ، ومعه ما تحبين من هدايا الإسكندرية .

وصمتت الأم لما سمعت هذا القول ، وذرفت عينها على الرغم منها دمعة ساخنة لم تدركها الوليدتان ، ولكن أدركتها أختهما الكبرى ،

فعرفت أن حادثا قد ألم بأبيها ، ولكنها لا تعرف هذا الحادث . وغلب على ظنها أنه ذهب إلى النيابة ؛ ليجيب عن سؤال ، أوليدفع اتهاما ، أو ليقضى أياماً فى السجن كالتى قضاها منذ عام .

ولم يخطر ببالها قط أنه ذهب إلى الإسكندرية ليركب الباخرة (الملكة أوجنى) الروسية إلى الآستانة مستخفياً .

ولم يخطر ببالها قط أن أباها مسافر سفراً بعيداً لا رجوع منه ، وأن ليلة أمس كانت آخر ليلة يقضيها والد فى بيته و بين أولاده . يا له من رجل ! كيف اغتمضت عيناه فى تلك الليلة ؟ كيف نام ؟ كيف استطاع أن يرد نفسه عما تأمر به النفوس البشرية ، من حب السلامة ، والخلود إلى الراحة ، والتمطى إذا دعا الداعى ، أو نزل المكروه ؟

يا له من رجل ! ياله من والد ! يا له من زوج !

كيف سافر فى قطار الصباح ، ولم يتأرجح به التردد إلى قطار المساء ؟

كيف ترك عبد الخالق وأخواته حميدة وفائقة ولطيفة وهانم ؟ لقد قبلهن نائمات ، وودعهن غافلات ، وترك الأمر للإله . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

لم يدفع أجر السفر فى السفينة إلا بعد أن أقلعت من الميناء ،

لأنه كان مختفياً فى غرفة أحد أصدقائه خوفا من عيون الحكومة وجواسيسها أن يمنعوه السفر ، أو يعوقوه عن ركوب الخطر . ثم صعد على ظهر السفينة ، وألقى آخر نظرة إلى شاطئ الإسكندرية ، وقال وداعاً يامصر إلى يوم اللقاء ، وداعاً بلادى المحبوبة ، سأمضى فى الجهاد غير خائف ولا وان ، ولسان حاله يقول :

ولى وطن آليت ألا أبيعه * وألا أرى غيرى له الدهر مالكا

ويقول الشاعر :

وحبب أوطان الرجال إليهم * مآربُ قضّاها الشباب هنالكا

أخطأت أيها الشاعر حين عالجت أسباب حب الأوطان ، ونسبته إلى تلك المآرب التى قضاها الشباب فى أرض الوطن ، وتحت سمائه . فهذا محمد فريد ماقضى فى وطنه مآرباً ، وما أدى لشبابه حقا ، إنما جنى على شبابه ، وجنى على صحته من أجل وطنه . فقد علمت أن زعامته جاءت مبكرة ، وأن رجولته ظهرت وهو فى ريعان الشباب .

ولو كانت المآرب التى قضاها الشباب والاستجابة إلى شيطان الصبا سبباً فى حب الوطن ، ما رأينا من أبناء هذا الوطن من صار حربا على الوطن . وغالب الظن أن هؤلاء الذين كفروا بحق

الوطن ، كانوا حرباً عليه وعلى رجاله الأحرار ، هم أكثر الناس استمتاعاً بالوطن ، وهم أكثر الشبان استمتاعاً بالشباب ودواعيه — يوم كانوا شباناً .

المأخرة تسير

لا تحسب أيها القارئ الكريم أن الناس احتشدوا فى ميناء الإسكندرية لوداع الراحل الكريم ، كما تعودوا أن يجتمعوا لتوديع كل مسافر ، وكل راكب ، وكل راحل فى هذه الأيام . ولم يلوح له أحد بمنديل ، ولم يذرف أحد دمعة حين أقلعت السفينة من الميناء . ولما يعانقه صديق أو حبيب ، إنما هاجر هو وصاحبه ، كما هاجر محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى خفية وتكتم شديدين .

وسارت تلك السفينة الروسية تتهادى فوق الأمواج ، ولم تدر أن من ركابها رجلاً يحمل أمل أمة ، ومدرهاً يدافع عن حق أمة ، وزوجاً ووالداً فنيت مصالح أبنائه وأسرته فى مصالح الأمة وحقوقها .

لم يذهب فريد ليحضر مؤتمراً ، أوليتسلق جبلا ، أو ليزيل هما ، أو ليجدد صحة . بل ذهب ليكوّن المؤتمرات ، وينشئها إنشاء .

ذهب ليزلزل الجبال زلزالا ، وليدك صروح الظلم دكا . ذهب ليفنى ما بقى من صحته وقوته ، فى سبيل بلاده وأمته . ذهب ليقول المحتلين فى عقر دارهم : اخرجوا من بلادنا ، واتركونا أحراراً نحكم أنفسنا بأنفسنا ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا .

ذهب ليقول لأوروبة ملوكا وحكومات ، وشعوباً وصحافة ، إن بلاد خوفو ورمسيس وتحتمس قد وطئتها أقدام المحتلين ، فحكموها حكم القوى الضعيف ، وأكرهوا حكامها على طاعتهم والخضوع لجبروتهم .

* * *

انتصف النهار وعادت فائقة وحميدة ، وعاد عبد الخالق إلى البيت ، ليتناول الطعام . وإنهم ليسألون أمهم عن أبيهم ، وإن أمهم لتمسكت فلا تجيب ؛ لأن سحابة من الحزن والهم والكآبة تعلو وجهها . وإن الأولاد ليأكلون بعض الطعام ثم يشفقون على أمهم الحزينة الكئيبة فيعودون إلى مدارسهم ، وإنهم ليرجون أن يعودوا فى المساء مع أبيهم .

ويأتى المساء فلا الأب قد عاد ، ولا الأم قد اطمأنت . وإن بعض أصدقاء فريد ليفدون على المنزل ، ويتكلمون كلاماً لا يفهمه هؤلاء الصغار . وإنهم ليقبلون هؤلاء الفتيات ، وكأن أمراً قد ألمّ

بهذه الدار و بصاحبها ، ولكن هذا الأمر سر مكتوم ، يشار إليه ، ويكنى عنه ، ولا يصرح به .

والسفينة ماضية فى سيرها ، ترتفع مع الأمواج ، وتهبط معها ، وفى غرفاتها فتيات وفتيان ، ورجال ونسوة ، ذهبوا ليجددوا شبابهم ، أو ليضاعفوا سعراتهم ولذاتهم ، أو ليستجموا من عناء أعمالهم ، أو ليزوروا قريباً أو صديقاً رحلوا عنه أو نزح منهم . وإنهم ليتمتعون فى رحلتهم بكل ما يتاح فى هذه الرحلة من أسباب المتع والترف .

ولكن رجلا وصاحبه يجلسان وحدهما على ظهر السفينة منفردين ، ممعنين فى التفكير ، يفكران فى أمتهما ، فتنفرج شفاههما عن كلمة الصبر . ويفكران فى يومهما فتنفرج شفاههما عن كلمة الشجاعة ، ويفكران فى غدهما فتنفرج شفاههما عن كلمة الأمل . إننا نعرف كيف نصبر على المكاره ، ولكننا لا نعرف التسليم فى حقوق الوطن .

وصل محمد فريد إلى الآستانة فى ٣١ من مارس سنة ١٩١٢ ، وتوفى فى ١٥ من نوفمبر سنة ١٩١٩ ، فيكون قد قضى فى أوروبة أكثر من ثمانى سنوات مجاهداً فى سبيل بلاده ، لم يسترح فى خلالها لحظة .

وفى هذه المدة من جهاده قامت الحرب العالمية الأولى سنة (١٩١٤ — ١٩١٨) فزادت تبعاته ، وشقت عليه الحياة ، وصادف من هول الأيام ما صادف ، فما شكا ، وما ونى ، وما فرط .

وإنا ذاكرون هنا قليلا من كثير من جهاده فى أوروبة . والقليل يدل على الكثير ، والبعض ينل على الكل .

فى مؤتمر السلام بجنيف

وزع محمد فريد على أعضاء المؤتمر فى سبتمبر سنة ١٩١٢ مجموعة خطبه ليقفوا على حقائق المسألة المصرية ، فدرست اللجنة مسألة مصر ، وقررت أحقية مطالبها وعرضها على المؤتمر .

وقد تعرف بكثيرين من أعضاء المؤتمر ، وتكلم معهم فى المسألة المصرية ، فوجد منهم كل إقبال ومساعدة .

وإليك ما قاله هو فى وصف أعمال المؤتمر الخاصة بمصر :

عقدت جلسة الافتتاح فى صبيحة الاثنين ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩١٢ بقاعة الكلية الكبرى . وبعد خطب الترحيب من مندوب المدينة ومندوب الجمهورية السويسرية ، والرد عليه من كبار المؤتمرين ، صار انتخاب الوكلاء ، فكنت منهم ، كما انتخبت كذلك مندوباً عن مصر مع الفاضل الدكتور أحمد طاهر أفندى

الطالب بجامعة الطب بباريس بلجنة الشئون الحاضرة (ص ٣١٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩) التى كان من اختصاصها بحث مسألة مصر وتقرير ماتراه فيها ؛ لعرضه على الاجتماع العام . اجتمعت هذه اللجنة و بعدأن تكلم بعض الحاضرين فى مصلحتنا وعارض فيها بعض الإنجليز حررت اللجنة الاقتراح الآتى ، وقررت عرضه على الجمعية العمومية للمؤتمر . وهاك ترجمته حرفيا :

«مضت سنوات كثيرة والمؤتمر يعلم بالاحتجاجات التى رفعها الكثيرون من الأعضاء المصريين على الحالة السياسية التى سببها الاحتلال الإنجليزى . ولما كان المؤتمر يعلم أن الحكومة البريطانية نفسها كانت ولا تزال تعد الاحتلال العسكرى فى مصر مؤقتا ، وأنه فى كثير من الأحوال ولا سيما فى سنة ١٨٨٢ وسنة ١٨٨٤ تعهدت الحكومة البريطانية بعهود صريحة على لسان (المستر جلادستون واللورد جرانفيل) أنها لا تمد أجل احتلال مصر إلى وقت لا نهاية له . وأن الأعضاء المصريين قد صرحوا أنهم يبنون عملهم بأكمله على أساس القانون ، وأنهم يستنكرون استخدام وسائل القوة لتحقيق مطالبهم . فالمؤتمر يركن إلى شعور الأمة البريطانية الصحيح ، ويذكرها بالوعود التى ارتبطت بها الحكومة

البريطانية ، ويعرب عن أمله فى أن يجلو الاحتلال البريطانى عن مصر فى أقرب وقت ممكن ، وأن يعاد تأسيس حكومة ذاتية فى مصر ، تكون فيها الضمانات الكفيلة بحفظ المصالح الدولية والأهلية . »

أدرجت مسألتنا ضمن أعمال المؤتمر ، ولكن لم يأت دورها للمناقشة إلا فى صبيحة يوم الجمعة ٢٧ من سبتمبر ، فافتتح الكلام المسيو جوبا (Gobat) السكرتير العام للجنة الدائمة والمؤتمر .

فشرح تاريخ الاحتلال وأسبابه ، وبين أنه مؤقت باعتراف الإنجليز أنفسهم ، وأتى على ذكر وعود وزراء الإنجليز ، وقرأ بعضها ، ثم طلب الاقتراع على ما طلبته اللجنة .

فقام عضو إنجليزى اسمه (المستر ماديسون Mr. Maddison) من أعضاء مجلس العموم البريطانى ، وأخذ يتكلم بحدة ضد طلبات المصريين قائلا : « إن المؤتمر غير مختص بنظرها . وإنه لا يستطيع مؤتمر مثل هذا أن يفحص فى بضع دقائق عن مسألة عويصة مثل مسألة الاحتلال » ، وطلب الاقتراع على عدم اختصاص المؤتمر أولاً ، ثم آزره أمريكى فى عدم الاختصاص ، وإن كان لم يوافق على الاحتلال قائلا « إن الاحتلال جريمة قديمة ، ونحن نسعى لمنع الجرائم المستقبلة » . وبعد ذلك قال الرئيس

(المسيو لافونتين La Fontaine) العضو بمجلس شيوخ بلجيكا :

« إننا سمعنا خطيبين من خصوم الدعوى ، فيجب أن نسمع خطيبين من مصلحتها ، وهما (المستر جرين) الإنجليزى ومحمد بك فريد المصرى » ثم دعا (المستر جرين) للخطابة ، فقام ودحض دعاوى (المستر ماديسون) ، مبينا أن واجب انجلترا إنما هو تنفيذ وعودها ، وسحب جنودها فى أقرب وقت ، و إعادة الحكومة الذاتية لمصر ، كما كانت قبل الاحتلال .

فصفق له الحاضرون ، وقاطعه (المستر ماديسون) مرارا ، حتى اضطر الرئيس لتنبيهه للواجب . واشتد اللجاج بينه و بين الرئيس ، واتهم الرئيس بالتحيز لنا مما حول أغلب الحاضرين عنه . وختم (المستر جرين) خطابه بالموافقة على اقتراح اللجنة ، ورفض المسألة الفرعية التى رفعها المعارض . ثم دعيت للخطابة فقلت :

خطبة محمد فريد :

« إنى سعيد للوقوف أمام هـذا الجمع الذى يشمل أساطين الأمم المتمدنة ؛ لأدافع عن قضية مصر ، أى قضية أمة ضعيفة أمام أمة قوية تريد اغتيالها . و إنى متأكد أنى سأجد منكم كل مساعدة وتعضيد أمام هاضمى حقوقنا ، وغاصبى بلادنا . و إن

مسألتنا ظاهرة ، ولا تحتاج لشرح طويل؛ فقد وفاها (المسيو جوبا) حقها من الوجهة التاريخية والسياسية ؛ ثم طلب رفض المسألة الفرعية قائلا : « إن هذه المسألة رفعت فى مؤتمر استوكهلم ، » و بعد مناقشة طويلة تقرر رفضها ، وتكليف اللجنة الدائمة فحص الدعوى ، وقد فحصت عنها .

يقول بعضهم إن مسألة مصر كمسألة بولونيا ، فقال الرئيس « إن بولونيا ممثلة هنا بصفة أمة » . فقابل الحاضرون هذا التصريح بالتصفيق والتهليل . يقولون إن مصر كبولونيا ، وأنا أقول لا شبه بينهما ؛ لأن بولونيا جزئت بين ثلاث دول ، أما مصر فمحافظة على ذاتيتها . ولم يدّع الإنجليز أنفسهم أنها مستعمرة إنجليزية ، أو أنها تحت حمايتهم . ومع ذلك فهل ابتلاع أمة أو أمم كبيرة لأمة صغيرة يحرم هـذه الأمة الدفاع عن نفسها ؟ كلا إن حق الدفاع عن النفس واجب على أى حال مهما تكن الصيغة التى يصنع بها المعتدون أعمالهم المغايرة للإنسانية . إنى أطلب لمصر ذلك الحق الذى قرره المجلس فى جميع اجتماعاته السابقة، وهو أن لكل أمة الحق المطلق فى أن تحكم نفسها بنفسها كيفما تريد . أذكركم بقراراتكم السابقة ، وأطلب منكم الإنصاف من أى قوة تريد ابتلاع بلادنا .

إن جميع المصريين من رأيي يطلبون الجلاء ، إلا بعض الذين يتظاهرون بمحبة الإنجليز لينقدوهم ثمن خيانتهم غاليا .

إن معارضي الأمريكي يقول : إن المؤتمر يشتغل بمنع الجرائم المستقبلة ، لا بالجرائم القديمة ، فهذا اعتراف منه بأن الاحتلال جريمة ، وأنا أوافقه على ذلك . ولكن أقول إنه جريمة مستمرة كما نقول نحن معاشر المحامين ، أو إنها تجدد كل صباح ما بقي الاحتلال » .

« وختمت عبارتي بطلب الموافقة على اقتراح اللجنة مع رفض عبارة طلب الجلاء (في أقرب وقت ممكن) ؛ لأن هذه العبارة تفتح لانجلترا باب التسويف ؛ فإنكم تعلمون أنها دخلت مصر لتبقى بضعة أسابيع ، وها هي ذي قد قضت مدة ثلاثين سنة . فليكن إذا طلب الجلاء حالا » .

ثم تقررت الموافقة على الاقتراح كما هو ، ورفضت المسألة الفرعية ، ورفضت التعديلات .

وعند ذلك دوى المكان بالتصفيق المستمر ، وعلا الهتاف في كل مكان ، وأخذ المصريون يهنئ بعضهم بعضا ، كما أخذ أصدقاؤهم يهنئونهم كذلك .

صدى هذا المؤتمر العالمى

كان المصريون يتهللون فرحا ، ويطيرون اغتباطا إذا ذكرت الصحف الأجنبية كلمة عن القضية المصرية ، فيها رائحة الدفاع عن حقهم . فما أعظم ابتهاجهم وسرورهم عندما أظهرت شركة هافاس قرار المؤتمر العالمى ، وهو مؤتمر عظيم بلغ أعضاؤه نحو أربعمائة عضو ، يمثلون صفوة رجال القانون والاقتصاد والعلم والسياسة فى أنحاء العالم !

لقد أكبر الوطنيون هذا القرار ، وأكبروا هذا المجاهد العظيم الذى جعل لمصر قضية فى أوروبة تنظر وتناقش ، وتصدر فيها قرارات :

نعم لقد كان هذا المؤتمر فوزا جديدا للقضية المصرية ، ودعاية عظيمة لها بين مختلف الأمم المتحضرة .

لقد جدد الأمل فى نفوس الوطنيين ، وأحيا فيهم الرجاء ، وأرسل كثير منهم برقيات يهنئون فيها محمد فريد بجنيف . ونحن هنا نكتفى بذكر إحدى هذه البرقيات التى نشرت فى جريدة العلم فى ٣ من أكتوبر سنة ١٩١٢ :

تهنئة فريد بك

فريد بك بجنيف .

نهنئكم بنجاحكم نجاحا باهرا ، وفوز مجهوداتكم التى أثمرت باقرار المؤتمر وجوب الجلاء عن مصر ، و إعطائنا حكومة مستقلة ، ونؤمل أن نصل إلى ذلك قريبا .

التوقيعات

محمد شكيب القاضى بالمحاكم الأهلية سابقا .

عبد الله طلعت — محمد على المهندس — أحمد وجدى المحامى بالزقازيق . محمد عبد الملك حمزة المحامى بمصر — عبد الرحمن الرافعى المحامى بالزقازيق — إسماعيل صادق — إسماعيل حافظ مدير جريدة العلم — عبد المقصود متولى المحامى بمصر — أحمد وفيق المحامى بالزقازيق — أحمد على المحرر بجريدة العلم — محمود حمدى السخاوى — أمين الرافعى المحامى بمصر — محمد زكى على المحامى بمصر ، مصطفى الشوربجى المحامى بطنطا — إسماعيل كامل المحامى بمصر .

هذه إحدى عشرات القضايا التى أقامها محمد فريد فى عواصم أوروبة ، ودعا إليها ، ووضح حقيقتها ، وشغل بها الأذهان والصحافة وشركات الأنباء .

ولو أن أمة من الأمم قامت بهذا العمل ، وأوفدت مندوبين عنها ، وأنفقت فى سبيل ذلك مئات الألوف من الجنيهات ، لحسبت فى عداد الأمم المجاهدة . فكيف لو قام به فرد واحد هو محمد فريد؟ وكيف لو قام به فرد طاردته حكومته وحيرته بين السجن والنفى؟

وكيف لو قام به هذا المجاهد وحده فى أوروبة ، وأنفق فى سبيله كل ما يملك من مال وعقار ، وصحة وجهد ، وهذه حكومات بلاده ماضية فى اضطهاد أصحابه وأعوانه ، والقائمين على مبادئه ، تحاكمهم وتشردهم ، وتنفيهم وتعطل صحفهم ، وتكمم أفواههم ، وتغلق نواديهم ، وتضطهد ذراريهم ؟

لقد ذكرت هذه القضية (قضية مؤتمر جنيف) سنة ١٩١٢ بشىء من التفصيل والتوضيح ؛ لتكون عنواناً ودليلا على القضايا الأخرى التى أقامها ، ودعا إليها ، وخطب فيها وناضل ، ودافع عن حقوق بلاده فى فرنسا ، وفى بلجيكا ، وفى الدانمركة ، وفى بلاد الإنجليز أنفسهم .

ولم يكتف بهذا ، بل أنشأ الصحف والمجلات ، كان يحررها بقلمه ، وينشرها فى عواصم أوروبة ، ويوزعها على أنصار مصر وأصدقاء المصريين .

لمصر الآن سفارات فى معظم بلاد العالم ، وفيها موظفون كثيرون ينفقون أموالا جمة ، ونرجو أن تقوم هذه السفارات

بما قام به فريد المنفى الشريد ؟

لم يكن لمصر فى ذلك الوقت تمثيل خارجى ، فكم من مئات الجنيهات رصدتها مصر لهذه الدعاية لقضيتها العادلة ؟

لا شىء ، بل رصد فريد لعمله وجهاده كل ما يملك من مال وعقار ، وصحة ، ودم وعرق ، وحب وحنان وأبوة و ...

الجزاء

فى الوقت الذى كان محمد فريد مشغولا فيه بمؤتمر جنيف يصول فيه ويجول ، ويحاور ويحاول ، كانت حكومة مصر مشغولة هى الأخرى بأمر هام ؛ ذلك أن الفقيد كان وهو بمصر عضواً فى نادى المدارس العليا ، وكانت له على هذا النادى أياد بيضاء ؛ فإنه فى سنة ١٩٠٨ أهدى إلى مكتبة النادى خمسمائة كتاب من خيرة الكتب التى كانت تحتويها مكتبته العظيمة .

فقام وفد برياسة عمر لطفى بك رئيس النادى وعضوية بعض الأعضاء ليشكروا للمهدى هديته ، وقدموا له كتاب شكر رقيق .

وفى سنة ١٩١١ أى قبل النفى أهدى إلى النادى جميع ما فى مكتبته النفيسة من الكتب ، فصارت مكتبة النادى من أغنى المكتبات .

تلك هى الصلة الروحية بين الفقيد ونادى المدارس العليا ، وكان يضم مجموعة من صفوة المصريين فى ذلك الوقت .

انتهزت الحكومة فرصة نفى الزعيم فى أوروبة ، وطلبت إلى النادى أن يمحو اسم فريد من بين الأعضاء ، بحجة الحكم عليه بالسجن ، وأنه بذلك أصبح مجرما .

وعز هذا القول على رئيس النادى وعلى أعضائه ، وقالوا للوزراء المصريين : « معاذ الله أن يكون جزاء فريد منا فصله من عضوية النادى ، ومعاذ الله أن يقول مصرى على فريد إنه من المجرمين . كبرت كلمة تخرج من أفواههم » .

وهددت الحكومة النادى بالإغلاق ، فاجتمع أعضاء النادى جميعاً ، وقرروا أن الإغلاق خير للنادى من تنفيذ أغراض الوزارة ، فسكتت الحكومة إزاء هذا الإصرار .

أثر فريد فى الحياة النيابية بمصر

لم يرض محمد فريد بالدستور بديلا ؛ فمجلس شورى القوانين والجمعية التشريعية والجمعية العمومية كل هذا كان فى نظره ملهاة يلهى بها المحتلون فريقاً من المصريين ؛ ليشغلوهم عن طلب الدستور . ولكن فريداً لم يسكت قط عن طلب الدستور ، ولم يشغله شاغل عن طلبه والإصرار عليه .

طلبه مراراً من الخديو ، وكانت الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى كل اجتماع لها تبرق إلى الخديو بطلب الدستور . ولقد دعم فريد حركة طلب الدستور بتقديم العرائض من جميع طبقات المصريين ، رجالا ونساء حتى بلغت هـذه التوقيعات خمسة وستين ألفاً .

ولـكن الدستور الذى أفنى حياته فى طلبه لم يتحقق لمصر فى حياته ، ولـكن هذا لا ينسينا ما أحدثته هذه الحركة من اليقظة والشعور بين المصريين ، حتى جعلت من أعضاء هذه المجالس النيابية الصورية من يخشى الاحتلال بأسهم ، وإليك ما قاله (السير الدوق جورست) المعتمد البريطانى فى تقريره عن سنة ١٩٠٩ :

« إن أعضاء مجلس شورى القوانين لا يستطيعون التخلص من الآراء الفاسدة التى يوحيها إليهم الناقمون من الحـكم الحاضر ، والنظر فيما يعرض عليهم بالعين المجردة عن الهوى . فمن أمثلة ذلك المعارضة المستمرة للإعانات التى تمنحها الحـكومة لترقية السودان» .

وقال فى تقريره عن سنة ١٩١٠ : « إن مجلس الشورى والجمعية العمومية أظهرا فى سنة ١٩٠٩ وفى النصف الأول من سنة ١٩١٠ ميلا متزايدا إلى أن يكونا آلتين بأيدى الحزب الوطنى ،

يستعملهما فى تحريضه وتهييجه على الاحتلال الإنجليزى ؛ فإن طلبهما المتكرر لحكومة دستورية تامة ، وحملاتهما المنكرة على الحكومة فيما يتعلق بميزانية السودان ، والعداوة والريبة اللتين أظهراها فى مشروع قناة السويس ، وتجاوزا فيهما حد الاعتدال كانت كلها فى جوهرها مظاهرات ضد الإنجليز طوعاً لتحريض الحزب الوطنى ، فإن الفكرة الكبرى عند هذا الحزب هى أن يبطل الاحتلال البريطانى بجعل قيامه بمهمته أمراً مستحيلا » .

هذه شهادة من ممثل الاحتلال البريطانى فى مصر للحزب الوطنى ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

النادى المصرى بلندن

كان محمد فريد بأوروبة كما كان بمصر مدرسة يتلقى الشبان عنها مبادئ الوطنية . وكان يرى أن النهضة الاجتماعية هى الأساس الذى لا بد منه لنجاح النهضة القومية الوطنية .

وكان لتنقلاته فى عواصم أوروبة رنين ودوى أيقظا الشبان المصريين الموزعين على جامعات أوروبة المختلفة ، فجمعتهم أخبار فريد ، وخطبه السياسية ، والمؤتمرات التى يدافع فيها عن قضية مصر ، وكان من أثر ذلك أن فكر الطلبة المصريون بلندن فى تأسيس نادٍ يجمعهم ، ويلم شملهم ، سموه النادى المصرى . ودعوا

فريداً لحضور حفلة الافتتاح ، فحضر الاجتماع ، وجلس فى كرسى الرياسة ، ثم ألقى خطبة بصوت مؤثر قال فيها :

« إخوانى الأعزاء ، إنى لسعيد بأن أرانى بينكم مرة أخرى ، وأقوم اليوم بافتتاح هذا النادى المبارك . وأظن أن الكلام فى فوائد الأندية والمجتمعات من قبيل تحصيل الحاصل كما يقولون .

فلا حاجة بى لأن ألقى على مسامع مجمع مستنير مثلكم ما أنتم على علم أكيد به مثلى ، لقد كنت أيها الإخوان أتمنى وجود هذا النادى من قبل ، وإنى لسعيد بأن أرى أمنيتى هذه قد تحققت اليوم ، ولم تؤخر إلى غد .

وإنى أشكر لأعضاء اللجنة التحضيرية بصفة خاصة ، وأعضاء الجمعية العمومية عامة تنفيذ هذه الفكرة التى عرضتها عليكم ، وكان كل أملى وثقتى أنها ستحوز هذه العناية منكم . كم كنت أمتلئ حسرة فى زيارتى للعواصم والمدن الأوروبية عند ما كنت أرى جميع الجاليات الأجنبية ما عدا المصريين تعنى عناية عظيمة بتأسيس أندية وجمعيات لها ، بدون تمييز أو تفريق بين أفراد الجالية الواحدة ، ولكن النهضة الأخيرة للشبيبة المصرية بأوروبة قد أزالت عنى ذلك الهم ، الذى كنت أكتمه فى نفسى ، ولم أدعه يتغلب على ، فإنى أذكر بمزيد البشر والارتياح نادى

المصريين بالآستانة ، وجميات أبى الهول فى جنيف ولوندرة ، وجمعية الأخوة الإسلامية بباريس ، وجمعية المحاضرة والمناظرة المصرية بلوندرة . واليوم أذكر بسرور مضاعف تأسيس النادى المصرى بلوندرة الذى نحتفل اليوم بافتتاحه ، ولا يزال الأمل الوافر فى تأسيس جميات وأندية مصرية وطنية أخرى فى بقية العواصم الأوروبية ، وفى نمو التضامن والتآزر بينها . ومهما يكن عدد أعضاء هذه الجماعات والأندية صغيراً فى بدء تأسيسها ، فليست قيمتها بعدد أعضائها ، ولكن بشخصيتهم . وكل عضو منها بألف من أموات الأحياء . ليست وظيفتكم فى هذه الديار هى التعلم المدرسى فقط ، بل أيضاً الاستفادة من حسنات أهلها ، والتمرن عليها . وأنتم ترون هنا بأعينكم أثر الأندية والمجتمعات فى نهضة هذه الأمة فتشبهوا بها ، وتمسكوا بأحسن الوسائل التى تفوق بها غيرنا علينا . ربوا أنفسكم تربية وطنية عملية صالحة . وتدربوا على جميع أسباب النهوض ، استعداداً لخدمة بلادكم البائسة . (تصفيق واستحسان) .

ربما كان عدد الحاضرين فى هذه الجلسة غير كثير بالنسبة لعدد المصريين فى لوندرة أو فى بريطانيا كلها ، لكنه عدد غير قليل فى حد ذاته ، ويكفى أن أرى هذه القاعة قد غصت على رحبها بشبان يتدفقون غيرة وشمما ، وأول الغيث قطر ثم ينهمر ...

إن من أكبر العلل المتفشية فى أمتنا (اليأس) ، فحاربوه . وإياكم أن تدعوا خلة ساقطة مرذولة كهذه تتغلب على عقولكم النيرة . حاربوا اليأس ما استطعتم . وتمسكوا بالوحدة الوطنية جهدكم . وأنا أضمن لكم يا فتية النيل المحبوب الفوز المرجو (تصفيق حاد) .

أنتم رجال المستقبل ، فأعدوا له عدته من الآن ، وإلا ضاع عليكم المستقبل ، كما ضاع الماضى على غيركم . تولوا شئون أنفسكم بأنفسكم ، وحققوا ما رميتم إليه من تأسيس هذا النادى ، وهو أن يكون مظهراً وطنيا لكم ، ووسيلة إخاء بينكم ، ومساعدة بعضكم لبعض :

ما ذا ينقص بلادنا للوصول إلى بغيتها ؟

لو عرف كل متعلم فيها — على قلة عددهم — واجبه القومى ، وحرص عليه حرصه على حياته ، وعلم أن شرفه مرتبط بأدائه .

إن الوطنية المصرية تطالبكم أيها الإخوة الأعزاء بأن تحرصوا على صيانة هذا النادى الذى يمثل جنسيتكم الموقرة فى هذه الديار ، تطالبكم بألا تنسوا خدمة بلادكم فى كل فرصة ، وبكل وسيلة . تطالبكم بالاتحاد بعضكم ببعض ؛ لضمان رقى هذا النادى ووجوده ، وكذلك ما ماثله من الأعمال الوطنية . تطالبكم بأن تذكروا دائما

أنكم إخوة فى الوطنية قبل كل شىء ، وأنه من الجريمة وأنتم ترون مبلغ تمكن العدو منكم ، ومن أمتكم الحزينة ، أن تتنازعوا بعضكم مع بعض فتفشلوا ، أنتم أولى من غيركم يا طلبة العلم والحكمة بالقضاء على هذه الصغائر التى جرت على بلادنا وعلى جميع أعمالنا الخراب والدمار (استحسان) .

تشبعوا بروح الأمل والرزانة والتسامح ، وحب التضحية الشخصية ، فهذا هو معنى الوطنية . (تصفيق) علموها لآبائكم ولأهليكم ولأصدقائكم فى مصر إذا كان بينهم من تسعده الأحوال بمعرفة أسرار الحياة الراقية التى تعيشونها هنا . لعلكم بذلك تداوون جراحات وطنكم العليل ، وتقرنون النجاح بأعمالكم ، وأعمال مواطنينا فى مصرنا العزيزة ، فيقرب ذلك اليوم الذى تستطيع أن ترفع فيه أمتكم رأسها من الأثقال ، محيية عودة حريتها الغالية المسلوبة » . (تصفيق متواصل)

وقد انتخب الفقيد رئيس شرف للنادى بين هتاف الأعضاء وسرورهم وحبورهم .

فى فرنسا

عرج فريد على ليون وهو عائد من لندن ، فأقيمت له حفلة تكريم كبيرة فى أحد الفنادق الشهيرة ، حضرها أساتذة الجامعة ،

ورجال الحكومة ، وبعض المحامين ، ومحافظ المدينة ، ونحو ٢٠ مصريا .

وبعد أن توالى الخطباء فى الاحتفال بمن أوجد حركة وطنية قوية مصرية ، وقف فريد وقال :

« لا تظنوا أن أبا الهول نائم تماما ، كلا فإنه ينام بإحدى عينيه ، وينظر بالأخرى إلى الأمم الفاتحة التى توالت على مصر ، وذهبت كأمس الدابر ، وهو رابض مكانه يمثل الأمة المصرية التى لم يؤثر فيها المغيرون » .

وقد قوبلت خطبته بحماس شديد ، وتصفيق حاد .

فى أثناء الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ — ١٩١٨

— ١ —

كان الخديو عباس يسعى جاهداً للصلح مع فريد ، فلما أعلنت الحرب العالمية الأولى جدد الخديو هذا المسعى ، وقبل ذلك فريد على شريطة أن يعلن الخديو الدستور . وقد أبدى الخديو لحاشيته أنه مغتبط بالصلح معه ، وأثنى عليه وقال عنه :

« إنه رجل مبادئ ، لا يتغير ، مهما يقاس فى سبيل المحافظة

على مبادئه » . ولكن الحوادث كانت أسرع منهما ، فخلع الخديو ، ومنع دخول مصر ، وأصبح هو الآخر يقاسى أهوال النفى والاغتراب .

— ٢ —

وحدثت بمصر أحداث جسام ، فعين السلطان حسين كامل على عرش مصر ، وتألفت وزارة حسين رشدى باشا ، واضطهد الوطنيون ففتشت بيوتهم ، واعتقل الكثير منهم ، ونفوا فى أوروبة ومالطة ، وأعلنت الأحكام العرفية فى مصر ، وأعلنت الرقابة على الصحف ، فخفتت الأصوات ، وصار الأحياء أشبه بالأموات .

— ٣ —

أما فريد فلم يفتر نشاطه ، بل تجدد أمله ، وقويت عزيمته ، وقدم إلى الدول المتحاربة والمحايدة مذكرة يذكرها بحق مصر والمصريين فى مؤتمر الصلح الذى بدت تباشير انعقاده ، قال : « إن الحزب الوطنى المصرى الذى كان ولا يزال على مبدئه (مصر للمصريين) ، والذى وقف نفسه على الدفاع عن وطنه العزيز ضد أى اعتداء أو احتلال أو تدخل أجنبى ، تحت أى اسم أو بأى صورة ، يخاطب اليوم بهذه المذكرة كل الحكومات بلا استثناء ،

انجلترا وحلفاءها ، تاركا العواطف والميول جانبا ، متبعا السياسة العملية الحقة .

إنا نريد أن نبين أن الحاجة إلى السلم العام ، و إلى العدل ، و إلى الحق تنصح لكل الحكومات أن تساعدنا على تحرير مصر من الاحتلال الإنجليزى ، الذى تحول بغير حق إلى حماية فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ .

إن كل الحوادث التى جرها احتلال مصر بالجنود البريطانية سنة ١٨٨٢ ، والتى أدت إلى وضع يد انجلترا على الإدارة المصرية معروفة مشهورة ، فلا داعى إلى الإطالة والإسهاب فيها .

ولقد نال الوطنيون بزعامة عرابى باشا دستورا كاملا من الخديو توفيق فى سنة ١٨٨٢ ، وساعد على تتميم الإصلاحات التى أعلنوها ، وأعان الشعب على السير إلى التقدم فى ظل الحرية ، ولكن انجلترا التى كانت تطمح إلى امتلاك مصر وترقب الفرصة للتمكن منها وجدت فى قيام فتنة الإسكندرية سنة ١٨٨٢ فرصة أدت إلى إطلاق القنابل فى ١٠ من يولية ، و إلى تخريب جزء عظيم من تلك المدينة الآهلة بالسكان ، ثم إلى احتلال القاهرة فى ١٤ من سبتمبر من السنة نفسها . وقد وعدت إذ ذاك فى المنشورات التى أذاعها (الأميرال سيمور) و (اللورد ولسلى) أن

هذا الاحتلال لن يدوم إلا أسابيع أو شهورا على الأكثر ، وكررت الملكة فيكتوريا هذا الوعد رسميا فى خطبها الملكية ، وكرره وزراؤها على منبر الخطابة فى (البرلمان) الإنجليزى . وفوق ذلك فإن ممثليها وقعوا على (ميثاق النزاهة) فى ترابيا (يونية سنة ١٨٨٢) ، ذلك الميثاق الذى تعهد الموقعون عليه ألا يسعوا إلى احتلال أى جزء من أراضى مصر ، ولا الحصول على أى امتياز خاص فيها . فهل كانت انجلترا وحلفاؤها يحسبون إذ ذاك أن المعاهدات التى ضمنت استقلال مصر من سنة ١٨٤٠ لا تستحق الاحترام الذى ظفرت به المعاهدات التى ضمنت حياد البلجيك ؟

حقا إنه لمن المدهش ألا يكون فى المذكرات الرسمية المتبادلة بين المتحاربين ، ولا فى مذكرة البابا أى كلمة تختص بمصر أو بغيرها من الأمم الخاضعة لانجلترا وحلفائها . فهل الحقوق الإنسانية قسمان ، لكل محارب قسم ، أم إن الحق الدولى لا يستحقه غير الشعوب الصغيرة الأوروبية ؟ وإنا مع ذلك لا نريد أن نصدق ما يظن من أن لهذا الفرق فى المعاملة مكانا من نفوس الدول المتمدينة ، مهما تكن تصرفاتها لتسوغ ارتيابنا فى إنصافها ، وكذلك لا نريد أن نيأس من النصر النهائى للحق والعدل ، بالرغم من الطمع الذى لا حد له ، والرغبات المتفاقمة فى

أفئدة عشاق الإمبراطورية الإنجليزية ، وإلا فإن ما كانوا يطمئنون به من تقدم الإنسانية ، وسير البشر إلى الإخاء العام ، سيظهر فى ثوب المدنية المهزمة ، والإفلاس التدليسى .

ونحن لا نجهر بهذا النداء اعتمادا على المبادئ الحرة فحسب ، ولكننا نعتمد من جهة أخرى على مصلحة السلام العام ، وبقاء تجارة العالم ، وضمان النقل فى قناة السويس ؛ فإن هذه أمور تتطلب حرية مصر واستقلال وادى النيل . فإن مركز مصر من ناحية هذا الطريق الدولى قد أغرى الغزاة بالتطلع إليها حتى قبل أن تحفر قناة السويس . وقد أراد نابليون فى أواخر القرن الخامس عشر أن يتخذها قاعدة لأعماله ضد الإنجليز فى الهند . وزادت أهمية مركزها بعد فتح القناة التى صارت أخصر طريق يوصل أوروبة وشرقى أفريقية بجنوبى آسيا وأقاصى الشرق .

وإن زيادة أهمية هذه القناة التى تنشأ عن اتساع تجارة أوروبة وعن كثرة علاقاتها البحرية مع البلاد التى تستورد منها المواد الأولية لصناعاتها تتطلب منطقيا وجوب الاستقلال لمصر ، حتى تستطيع بكل صراحة أن تجعل القناة على الحياد . وقد بينت الحرب الحاضرة أن هذه القناة ستكون حلما لا يتحقق مادامت لأى دولة أجنبية يد فى مصر ، وأنها بذلك تستطيع أن تنفرد

بمزايا الملاحة فيها ، وأن أحسن حل لهذه المشكلة هو أن تعطى مصر استقلالها ، وأن يعهد إليها فى حراسة هذا الطريق الدولى والدفاع عنه ، حتى تكون الحرية شاملة لكل متاجر العالم .

وإنه لبدهىٌّ أنى حين أتكلم عن مصر أريد كل وادى النيل من أقاصى السودان إلى البحر الأبيض المتوسط ، ثم البحر الأحمر ، بما يشمل كردفان ودارفور ؛ فإنه لا يجهل إنسان أن من يملك أعالى النيل إنما يملك رقبة مصر ، ويستطيع بكل سهولة أن يحتكر جزءا عظيما من مياهه لرى السودان . ومن أجل ذلك أوجدت انجلترا حكومة منفصلة فى السودان المصرى ، متخذة من سواكن وغيرها مرفأ للملاحة فى البحر الأحمر . وكذلك تعارض دائما فى اتصال السكك الحديدية المصرية بأخواتها فى السودان ، تاركة تمهيد ما بين أسوان ووادى حلفا حتى تستطيع حين تجبر على الخروج من مصر أن تسيطر على حوض النيل الأعلى ، وعلى فروعه التى تمده ، ثم تبيع الماء لمصر بوزنه ذهبا .

فيجب أن يكون وادى النيل لأبنائه[1] ، غير مجزأ ولا مقسم ، كما كان كذلك منذ وجد الأب البار لهذا الوادى ألا وهو النيل .

وبالمسألة المصرية ترتبط مسألة القناة فى حيدتها الفعلية ،

---

(١) فى الأصل : لنا وحدنا معاشر المصريين .

وحرية المرور للسفن ، من غير تمييز بين دولة وأخرى ، فى زمن السلم وزمن الحرب . ولقد كانت حيدة القناة معروفة ومضمونة من جانب الدول بمعاهدة دولية منذ سنة ١٨٨٥ ، وقد وقعت هذه المعاهدة فى لندن بعد احتلال انجلترا للقناة حين إغارتها على مصر بالرغم مما قاله (المسيو فرديناند دى لسبس) لعرابى باشا من أن فرنسا ستمنع — ولو بالقوة — احتلال انجلترا للقناة ، وقد انخدع عرابى بالوعد الفرنسى ، فامتنع عن سد القناة ، وغفل عن أن يتخذ منها قواعد أولية للدفاع . وقد تجاوزت انجلترا حد المشروع فاحتلتها احتلالا عسكريا ، بعد أن خدعت الجيش المصرى ، ثم دخلت مصر بعد موقعة التل الكبير (١٣ من سبتمبر سنة ١٨٨٢) . وعلى الرغم من هذه المعاهدة الجديدة فى سنة ١٨٨٥ قد اعتدت انجلترا على القناة ، واحتلتها من جديد ، منذ نشوب هذه الحرب حتى قبل أن تدخل تركيا ميدان القتال .

إن مصر تملك حقها الطبيعى فى أن تستقل بحكم نفسها ، ذلك الحق المعترف به الذى أعلنته كل الدول فى مؤتمر لهاى . ذلك الحق الذى من أجله زعمت انجلترا وحلفاؤها أنهن يواصلن القتال .

إن مصر إذا أعطيت استقلالها التام ، وحريتها المرجوة ، لجديرة بأن تبرهن للعالم أنها ماافقدت شيئا من خصائصها الأصلية ،

وأنها محتفظة بمزايا أسلافها العظام . إنها لا تعرف المطامع الاستعمارية ، وليست لها آمال من هذه الناحية ، ولا تطمع فى أن يمتد ملكها أكثر من حدوده الطبيعية . وإنما تطالب حقها فى أن تعيش حرة مستقلة ، وأن ترتع فى بحبوحة السلم ، وأن يكون لها تحت الشمس المكان اللائق بها ، وأن الصلح الذى يترك مصر لانجلترا سيكون صلحا أعرج ، وسيحمل الإنسان على حرب تكون أفظع من الحرب الحالية .

(فلتحى مصر للمصريين) .

استوكهلم فى ١٩١٧/١٠/١٠ محمد فريد

رئيس الحزب الوطنى المصرى

هذه صحف من تاريخ مصر القومى ، نذكرها لأنها مواعظ وعبر للكبار . وفيها تربية وطنية للصغار . وفيها توضيح للقضية المصرية . وفيها إيمان بحق الوطن فى الاستقلال . وفيها إلمام واسع بتاريخ مصر وقضية وادى النيل .

هذه الصحف المطوية من تاريخنا القومى ننشرها لكم يا طلاب العلم ، ويا أشبال مصر ، لتكون رائدكم حين تعملون ، وحين تجاهدون ، وحين تبنون للوطن مجده واستقلاله .

إلى المؤتمر الدولى الاشتراكى فى برن

فبراير سنة ١٩١٩

وكتب محمد فريد تقريرا ضافيا قدمه إلى المؤتمر الدولى الذى انعقد فى (برن) بسويسرة طالب فيه بالاستقلال التام .

وهنالك تعرف الوطنيون (بالمستر هندرسن) رئيس حزب العمال البريطانى ، وقد استمع إلى مطالبهم فى المسألة المصرية ، واقتنع بعدالتها ، ووعدهم بتأييدها .

وكان هذا أول اتصال (للمستر هندرسن) بالقضية المصرية ، وقد صار فيما بعد وزيرا للخارجية الإنجليزية فى حكومة العمال ، وتولى المفاوضة مع الوفد المصرى سنة ١٩٣٠ .

وأظنك الآن أيها القارئ الكريم قد عرفت كيف اتصلت الحركة الوطنية قبل الحرب الكبرى ، وفى أثنائها و بعدها ، فلم يخفت لمصر فى كل تلك المدة صوت ، ولم ينقطع لها مطلب فى داخل مصر أو فى خارجها . وكل هذا بفضل محمد فريد وأتباعه ، فلما شبت الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ لم تكن جديدة ولا طارئة ، إنما كانت امتداداً لثورة قديمة شبت بين الضلوع ، وفى القلوب ، فى عهد محمد فريد ، خليفة مصطفى كامل .

* * *

صوت من وراء البحار

أرسل محمد فريد وهو بسويسرة الرسالة التالية إلى مصر لمناسبة ذكرى احتلال الإنجليز العاصمة (١٤ من سبتمبر سنة ١٩١٩) :

رسالة محمد فريد الى مصر

« إخوانى المصريين الأعزاء :

إن الصوت الذى يناجيكم اليوم منعته الظروف عن الارتفاع فى صحف مصر من سبع سنوات ، ولكن منعه من الارتفاع على ضفاف وادى النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية فى عواصم أوروبة سواء قبل هذه الحرب أو فى أثنائها أو بعدها .

إن صوت هذا الضعيف لم يخفت يوما واحدا ، ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين ، بل كان يزداد قوة ونشاطا كلما تراكمت أمامه الموانع ، وتكدست العقبات .

إن هذا الصوت يناجيكم من وراء البحار ، ليهنئ الأمة المصرية على تضافرها وتضامنها فى المطالبة بحق أمتنا المظلومة (مصر) ، لا فرق فى ذلك بين أبنائها و بناتها ، المسلمين والأقباط ، مما كان له

دوى فى أوروبة أخرس المتهمين إياهم بالتعصب الدينى ، وهم يعلمون أنهم لكاذبون . وقضى القضاء الأخير على دعوى أن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا .

إننى لعاجز عن وصف ما شملنا من السرور نحن معاشر المصريين المقيمين خارج الديار عند وصول هذه الأخبار المنعشة إلينا ، ولو أنها كانت تأتينا مقتضبة مبتورة ، حتى أصبح المصرى فى أوروبة عالى الرأس ، فخورا بمصريته ، أضعاف ما كان يفخر بها قبل الآن .

إننا كنا ننتظر بحف مصر انتظار الظمآن الماء ؛ لنقف على أخبار هذه الحركة المباركة ، وهاتيك المظاهرات السلمية . ونشكر الله على هذه النتيجة الحسنة ، التى دلت على أن ما ألقاه مؤسسو الحركة الوطنية من البذور فى تلك الأرض الخصبة ، قد نبت وترعرع ساقه ، ثم أزهر وظهرت ثماره الشهية ، التى قد قرب زمن جنيها . كل ذلك بفضل نشاط الشبيبة العاملة ، وبإرشاد الشيوخ لها إلى أحسن طريق لجنى أشهى تلك الثمار ، وهو الاستقلال التام ، بفضل جهود الأمة بلا تباطؤ ، أو تواكل ، أو اعتماد على الغير لا يؤثر فيها غدر السياسيين ، أو نكرانهم لما أذاعوه وأعلنوه من مبادئ عادلة ، استعملت ستاراً لإخفاء مطامع أشهبية ، تفريرا وتضليلا ، للوصول إلى استعباد شعوب كريمة

لا تطلب إلا أن تعيش فى بلادها آمنة مطمئنة ، صديقة لغيرها من الأمم ، وأن تعاملها تلك الأمم معاملة الند للند ، والقرن لقرنه ، طبقا لحقوق الأمم الطبيعية ، وللقانون الدولى ، لكن لا تتطيروا أو تفرحوا بكل ما يصل إليكم ، حتى إذا ما تقشعت سحب الأوهام ، وظهرت شمس الحقيقة ، لا تكون حالكم كالمسافر فى الصحراء ، يرى السراب فيظنه واحات غناء ، فإذا ما وصل إليه لا يجده شيئا . وإياكم أن تنسوا عبر التاريخ . وليكن دائما أمام أعينكم ؛ فمنه تعلمون الحقيقة . ولتنظروا خاتمة الأعمال ، لإصدار حكمكم عليها » .

« أيها الأعزاء :

أكتب هذه السطور اليوم ، وذكرى ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ تملأ فؤادى حزنا وأسى على مصرنا العزيزة ، وما انتابها من الحوادث القاضية على استقلالها . ولكنى أرى فجر الأمل يرسم على الأفق خطا من النور اللامع ، نرجو أن يكون طليعة حريتنا المنشودة ، واستقلالنا المرجو .

فسلام عليك أيها الوطن المفدى ، وسلام على النيل ووادية . سلام على الأهرام وبانيه . سلام على خدام مصر المخلصين . سلام على شهداء الحرية ! ! »

فى ١٤ من سبتمبر ١٩١٤ محمد فريد

أيها القارئ الكريم .

اقرأ هذه الرسالة الكريمة مثنى وثلاث ورباع .

اقرأها على مهل . وتفهم كل كلمة من كلماتها .

إنها آخر صوت يصل مصر من الفقيد .

إنها رسالة الوداع للنيل ، وللهرم ، وللمصريين .

لم يذكر فيها أهله ولا داره ، وإنما ذكر فيها النيل والهرم ، والحرية والاستقلال : فيهما شغله الشاغل ، وهب لهما قلبه وحياته .

اقرأها : فلن تقرأ له بعد الآن شيئا ، ولكنك ستقرأ عنه كثيرا .

إنه سيصبح خبرا من الأخبار . سيكون فى ذمة التاريخ قبل أن يعود إلى وطنه المحبوب ، وقبل أن يرى الأبناء والأهل ، وقبل أن تطأ قدمه أرض مصر التى أحبها حبا وفيا .

اقرأ هذه الرسالة التى كتبها وهو على فراش المرض ، ولم يمض على كتابتها شهران حتى كان جثة هامدة ، أعياه الجهاد ، وأعياه العمل ، فخر صريعا بعد أن أنهك التعب والمرض قواه .

أيها السافر فى غير أرض !

هجع جبار الوادى ! ! هجع إلى الأبد ، وكان لا يعرف كيف يهجع — كان عاملا وساعيا ، وخطيبا ومجاهدا ، فى الحرب وفى

السلم ، فى القرب وفى البعد ، فى السراء وفى الضراء .

هجع جبار الوادى ، لا بفعل الغاصب المحتل ، ولا بفعل الحاكم المستبد ، ولا بفعل الخصم الحسود ، ولا بفعل السجون المظلمة ، والمعيشة الشديدة القاسية . لم يمت بهذا ، وإنما مات لأن الله أراد لهذا الصباح أن ينطفئ ، ولهذا المجاهد أن يستريح ، ولهذا الروح أن يصعد إلى خالقه .

انتهى الأجل ، ولكل أجل كتاب .

اشتد عليه مرض الكبد من كثرة الإعياء والتعب ، والوصب ، والسهر ، والقول والكتابة ، والتفكير والتدوين .

صار يتنقل بمرضه من عاصمة إلى عاصمة ، ومن مستشفى إلى مستشفى ، ومن طبيب إلى طبيب .

لم تسهر بجانبه زوج ولا بنت ولا ولد . لم يودعهم الوداع الأخير . ولم ينظرهم النظرة الأخيرة . مات فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهو يقول لإخوانه :

« إنى أنا وأولادى وكل عزيز لدىّ فداء لمصر . لقد قضيت بعيداً عن مصر سبع سنوات ، فإذا مت فضعونى فى صندوق ، واحفظونى فى مكان أمين ، حتى تتاح الفرصة لنقل جثتى إلى وطنى العزيز الذى أفارقه ، وكنت أود أن أراه ! ! » .

تلك آخر كلماته ، وبعدها أسلم الروح لخالقه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

أسمعت كلمات في الوطنية أبلغ من هذه الكلمات التي ينطق بها لسان عقده الموت ؟

في يوم عاصف غزير المطر ...

وأمام مصحة من مصحات برلين ، وقف عدد من المصريين في ألمانيا ، ومعهم كثير من الشرقيين والألمان ، وقبل تشييع الجنازة وقف الشيخ عبد العزيز جاويش أمام جثة الفقيد وقال :

كلمة الشيخ عبد العزيز جاويش أمام جثة الفقيد

« أيها السادة : أمام جثة هامدة ، وميت لا يعي ، نحن واقفون . كلا ! ثم كلا ! إنما نحن وقوف أمام صفحات من تاريخ الجهاد الأكبر ، في سبيل الحرية البشرية ، في سبيل الذود عن الحقوق الطبيعية للشعوب الإنسانية ، في سبيل مصارعة الأمم القوية ذات المطامع الأشعبية .

نحن وقوف أمام هذا الراحل الكبير ، الذي كانت حياته مثالا كاملا للمتشبهين ، وقدوة صالحة للعاملين ، فها هي تلك صفحاتها الناصعة ، ترينا كيف ضم فقيدنا العزيز إلى صلابة العزم جهادا لا يوهنه الملل ، ولا يوهيه الكلال ، كما ضم إلى الصراحة

المبالغة فى كتابته وفى كلامه إقداماً يستهزئ بالفوائل ، ويستهزئ من كارثات النوازل .

لقد رأيناه يوم ساقه الإنجليز إلى السجن بمصر ، فما كان إذ ذاك أقل ابتساما منه يوم فارقه بعد ستة شهور كاملة ، قضاها فى غيابته وظلماته .

ضيقوا عليه المذاهب ، وأخـذوا الأبواب والمسالك على قلمه ولسانه ، فلم يرَ بدا من مفارقة وطنه وأولاده وعشيرته ؛ إذ خرج يلتمس فضاء يسع صيحاته ، التى ضاق عنها فضاء بلاده ، ووقرت دونها آذان أعدائه ...

والآن نستودعك الله أيها الرئيس المحبوب ، فنم مغمورا برحمة الله وإحسانه ، مشمولا من أمتك بالدعوات الصالحة ، والذكرى العطرة ، والحب الدائم ، والسلام عليك ورحمة الله » .

ثم سارت الجنازة إلى مقبرة المسلمين ببرلين ، وهناك حفظ التابوت بكنيسة بالقرب من المقبرة ؛ لـكى يمكن نقله إلى مصر ، ونثرت على النعش الأزهار والرياحين ، المقدمة من وفود المصريين والشرقيين والأوروبيين .

وبقى التابوت وديعة لدى حارس الـكنيسة ، وظل أصدقاء الفقيد وتلاميذه يزورونه ، ويضعون الأزهار على التابوت ، إلى أن نقل إلى مصر فى يونية سنة ١٩٢٠ .

أين قبر فريده ؟

كأنك أيها القارئ الكريم تسأل وأين قبر فريد ؟ وكأنك تتخيل أن أمة النيل قد شادت له من الصخر بنيانا قائما يواسم عظمة الفقيد ، ويلائم ما قدم لهذه الأمة من تضحيات .

فاعلم — إن كنت لا تعلم — أن فريدا رقد ككل الراقدين فى قبر كسائر القبور عند السيدة نفيسة .

ها هنا قبر شهيد فى هوى * أمة أيقظها ثم رقد

كيف جىء بنعش الفقيد من برلين ؟

لم تقم الحكومة المصرية فى سنة ١٩٣٠ بهذا الواجب ، ولم تقم الأمة المصرية الكريمة بهذا الواجب ، ولم تقم بذلك الواجب جماعة أو هيئة ، بل قام به فرد من الناس ، لا ينتمى إلى وظيفة أو منصب أو جاه ، إنما يحمل نفسا كريمة ، ومروءة وشهامة ، فقام بما لم تقم به أمة ، وأدى وحده هذا الواجب ، مشكورا من الله سبحانه وتعالى : ذلك الرجل هو المرحوم الحاج خليل عفيفى التاجر بمدينة الزقازيق بالشرقية .

سافر من الإسكندرية فى ٥ من مارس سنة ١٩٣٠ قاصدا

برلين ، لهذه الغاية ، وعاد مع الجثة يوم ٨ من يونية سنة ١٩٢٠ . أربعة شهور أنفقها هذا الشهم فى السعى والعمل على تذليل العقبات التى صادفها فى نقل الجثة الطاهرة .

وأخيرا تكلل مسعاه بالنجاح .

وفى يوم وصول الجثة إلى الإسكندرية كانت الأمة كلها قد أعدت لاستقبال نعش الفقيد ، رجالا ونساء ، شيبا وشبانا ، فتية وفتيانا ، وكان يوم تشييع جنازته يوما مشهودا ، لبست مصر فيه السواد ، واشتركت الأمة بجميع طوائفها فى تشييع فريد إلى مقره الأخير .

أما القصائد والخطب التى نطق بها اللسان ، وتحرك بها الجنان ، فإنها تملأ مجلدا ضخما فخما . وسنكتفى هنا بذكر قصيدة لحافظ ، وأخرى لشوقى قالها فى ذكراه الخامسة :

فى رثاء فريد

قال حافظ ابراهيم :

مَنْ ليومٍ نحن فيه مَن لفذْ ... مات ذو العزمة والرأى الأشد

حَلَّ بالجمْعَةِ حزنٌ وأسًى ... ومشى الحزنُ إلى يومِ الأحد

أيها النيل لقد جلّ الأسى ... كن مدادا لى إذا الدمع نفد
واذبُلى يا زهرة الروض ولا ... تبسمى للطلّ فالعيش نكد
فلقد ولّى فريد وانطوى ... ركنُ مصرٍ رفتاها والسند

* * *

خالدَ الآثار لا تخشَ البِلى ... ليس يبلَى من له ذكرٌ خلد
يا غريب الدار والقبر ويا ... ساوةَ النيلِ إذا ما الخطبُ جد
آثرَ النيلَ على أمواله ... وقُواه وهواه والولد
يطلب الخير لمصرٍ وهو فى ... شقوة أحلى من العيش الرّغد
صار باً فى الأرض يبغى مأربا ... كلما قاربه عنه ابتعد

* * *

لهفَ نفسى هل ببرلين امرؤ ... فوق ذاك القبر صلى وسجد ؟
هل بكت عينٌ فروّت تربه ؟ ... هل على أحجاره خطّ أحد ؟
« ها هنا قبر شهيد فى هوى ... أمة أيقظها ثم رقد »

وقال شوقى فى ذكراه الخامسة سنة ١٩٢٤ :

نُجدِّدُ ذكرى عهدكم ونعيدُ ... ونُدنى خيال الأمسِ وهو بعيدُ
وللناس فى الماضى بصائرُ يهتدى ... عليهنّ غاوٍ أو يسير رشيد

فريدُ ، ضحاياناً كثيرٌ وإنما مجالُ الضحايا أنتَ فيه فريدُ
فما خلفَ ما كابدتَ في الحق غايةٌ
ولا فوقَ ما غامرتَ فيـــه مزيدُ

تغربتَ عشراً أنتَ فيهن بائسٌ وأنتَ بآفاقِ البلادِ شهيدُ
تجوعُ ببلدانٍ وتعرَى بغيرها وتَرزحُ تحتَ الداءِ وهوَ عنيدُ
ألا في سبيلِ اللهِ والحقُّ طارفٌ من المالِ لم تَبخلْ به وتليدُ
وجودُكَ بعدَ المالِ بالنفسِ صابراً إذا جزعَ المحصورُ وهوَ يجودُ
فلازلتَ مثالاً من الحقِ خالصاً على سرهِ نبنى العلا وتشيدُ
يُعلّمُ نشءَ الحيِّ كيفَ هوَ الحِمى وكيفَ يُحامِي دونَهُ ويذودُ

قلب مصر يخفق

كتبت جريدة الأهرام في عددِ يوم الخميس ١٠ من يونيو سنة ١٩٢٠ رقم ١٣١٤٩ تحت العنوان السابق ما يأتي : —

كتب المرحوم قاسم أمين بك في مذكراته (أنه رأى قلب مصر يخفق مرتين : الأولى في أثناء حادثة دنشواى ، والمرة الثانية يوم جنازة مصطفى كامل باشا) . ولو أن قاسماً عمر حتى اليوم لرأى قلب بلاده يخفق في كل عام مراراً وتكراراً ؛ يخفق لكل اهتزازة وطنية ، ويخفق لكل دعوة قومية ، قد يتناول الأمة كلها

كتيار الكهربا ؛ إذا مس طرفاً لا يلبث أن يصل إلى سائر الأطراف.

يقظة منبتها فى الصدور منبت الوطنية الصادقة . وهمة مقرها فى القلوب مقر الطموح إلى التقدم والرقى . وإقدام يحدوه الأمل والأمانى الطيبة بمستقبل باهر تستشفه العيون من وراء حجب الأيام وهو باسم الثغر ، طلق المحيا ، وفير النعم ، فتتلع إليه الأعناق ، وتقف عليه البصائر ، وتتعشقه النفوس فيمتلكها ، حتى تعد كل غال فى سبيل هذا المستقبل رخصيا ، وكل نعيم دون نعيمه مصيرا أوجحيما . وقديما كان فى الناس حب الكمال الأسمى . وقديما كان المصريون أول متطلع إلى هذا الكمال . فهم هم أصحاب الفلسفة الدينية من عهد الفراعنة إلى عصر القياصرة . وهم هم دماغ النصرانية وصقال مذاهبها ، وهم مرجع التعليمات الإسلامية وحفظتها .

فاذهب إلى الكرنك واسأل رموزه المركبة فى صخوره ، تقل لك إن بناته وضعوا أسس القومية المصرية ، والوطنية ذات الحدود الفردية ، وقالوا بالجنسية ذات العنصر الفرد ، قبل أن تتلقى عنها رومة التعليمات ، وقبل أن تقوى أشور وكلده وبابل .

فإذا كان لكل أمة أو عنصر تراث فى الأخلاق والطباع يتنزل إليه من جد إلى جد ، وأب إلى أب ، حتى الأبناء فالأحفاد ، فإلى من بعدهم أبد الدهر ، فإن فى دم كل مصرى تراثا عن

أجداده وآبائه يتنزل فى صدره و يسير فى شريانه مع الدم.

فإذا كانت كل أمة حية فى أرض عامرة وقد نبتت بها وتأصلت تستفيد من يمتزج بها ، بعد أن تستمد منه دمه الصالح الباقى — ولا يبقى غير الصالح — فتقوى به دمها وتمده بما هو فيها حتى تصير منه ، و يصير منها ، فإن مصر سارت على السنن فى أطوار وجودها، فلا الرعاة ظلوا فيها رعاة ، ولا النوبيون بقوا فيها نوبيين ، ولا الفينيقيون ولا الرومان ولا اليونان ظلوا فيها فينيقيين و يونانا ورومانيين ؛ بل صار الجميع مصريين . كذلك قل عن العرب والحبشان والترك والجركس والسريان والكلدان ، كانوا كالقطرة تلقيها فى اليم فتصبح منه بجوهرها وأجزائها وعنصرها ، وترث تراثه وخلقه ، وطبائعه وغرائزه ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وسر فى نظام هذا المجتمع الإنسانى ، ولن تلقى عنه فى أمة من الأمم تحويلا وتغييرا .

وعلى هذه السنة وهذا السر من نظام المجتمع ارتمت عينا (محمد فريد) المصريتان الوطنيتان ، من عهد الصبا إلى أن جاوز الشباب إلى الكهولة ، والصحة إلى السقام ، حتى النفس الأخير ، إلى جمال الكمال الأسمى ، فكان قيد بصره وقلبه ، فلم تتحول عنه عيناه ، ولم تصغ إلى غير صوته سامعتاه ، ولم ينبض بسواه

قلبه ، ولن ينطق بغير روائه لسانه ، حتى صار كله ملكا لذلك المعبود الأسنى ، يصيب ويخطئ في سبيله ، ويصح ويسقم في هواه ، ويقول ويعمل على سنته ، ويتعب ويرتاح من أجله ، حتى سكن ذلك القلب الخافق به ، فخفقت لسكون قلبه قلوب أمته ، وعاد فريد إلى مصر وهو جثة هامدة ، وكأنما روحه حية في الأرواح ، وجعل أبناء وطنه في خشية إلى رمسه ، وكأنما هم يحسون من حدة بيانه بما هو فوق البيان ، ومن كبر قلبه وجنانه بما يفوق قوة القلب والجنان ، ومن دعوته وتعليماته ما يزيد في تلك الدعوة نشراً ، والتعليمات علوا وسموا .

وكل امرئ صالح في كل أمة عاملة يزيده التعاقب عليه ، وصروره على محك القول ، وأطوار الشعوب ، بهاء ورواء ، ونموا وكمالا . ويكفي فريدا أنه أخلص في المحبة والخدمة ، والدعوة والمثابرة بحكم المعتقد واليقين ، حتى تبالغ الأمة في إجلال ذكره ، وإعادة فضله ، وتأدية ما يجب له .

إذا عدت الأمة جسما يتحرك بالرأي ، ويسير وراء كل مقدام يتقدمه ، فإن فريدا أحب أمته ، وأحب وطنه ، ووقف العمر على تلك المحبة . وإن فريداً من تلك الرءوس بجسم الأمة ، ومن أولئك الذين ساروا في طليعتها ومقدمتها قادة شجعانا ، لا يلوى

رأسهم إلى الوراء ، ولا يمينا ولا شمالا ، عذل أو عذر ، وعد أو وعيد ، تعب أو بؤس ، بل يسيرون إلى الأمام ، ويسيرون دائما إلى الأمام ، وهم يدركون أن وراءهم شعبا يدرج أدراجهم ، ويتلو خطاهم ، فيواصلون إليه بذلك الشعب إلى الأمام ، فإذا سقط ذلك المجاهد بجهده ، أو فرغ زيت الحياة من مصباحه المضيء ، وقفت أمته التي تقدمها تؤدي له تحية الإجلال والوداع ، وكأنها وهي تلحده في رمسه تقطع له العهد على نفسها بمواصلة سعيه وعمله ، فتزداد حلبته استنانا ، وفي سعيه جدا .

شاركنا هذا المجاهد من أبناء الأمة ربع قرن كامل في أفراحه وأشجانه ، وفي آماله الطيبة التي لم ينقطع حبل اتصالها ، ولم يقف لحظة شوط استنانها ، فلم نعرف فيه غير الإخلاص ديدنا ، وصدق الإيمان والعقيدة الوطنية منهجا ، كريم الخلق والسجايا كوجه المرآة صفاء ، صادق العزيمة لم يجزع لتخلف رفيق في وعرة المسلك والطريق ، سريع الإجابة لنداء كل داع لخدمة الوطن ، شرق وفيٌّ ، لا يرضى بمصريته أو شرقيته استنقاصا أو غمطا ، ينظر إلى الأمور من وجوهها الحسنة فيزداد أمله قوة ، ونفسه رضا . شريف في كل مقصد حتى الخصومة ، لين العريكة حتى في الأشد من نقده ودفع حجة خصمه ، فمن عرفه عرف

فيه صديقا ، ومن سمع به فكأنه يسمع بقريب منه .

هبت عواصف السياسة والحروب فى العالم ، فارتمى فريد بين أعصارها الهوجاء ، ليخدم أمه مصر ، وسكنت تلك العواصف أو كادت وفريد بين هوجائها ، يرى من رجال أمته من قالوا (أنا لها) ، فمد يديه النحيلتين يحيى العاملين ، وينشط الناهضين ، وذهب إلى ربه بجبهة ناضرة ، وعين تغمض على الارتياح المقرون بالأمل ، وذهب إلى ربه قرير العين والبال ، بعد مارأى من أمته منظرا بهجا ، حبته الأفلاك بدورتها ، والأرض بحركتها ، والأمم والشعوب بعدالتها ، فإذا حيت المدائن والقرى والعواصم جثمان فريد اليوم فإنما هى هبة من يقظة الأمة ، وتحية من تحياتها لوطنها . وإذا هى رتلت على قبره آيات الرحمة والرضوان فإنما هى أنشودة من أناشيد الدعاء لهذا الوطن بالسعادة والهناءة .

فارقد فى قبرك مرتاحا ؛ فكل مصرى يعوج بعد اليوم بذلك القبر ليحيى فيه الوطنية الصادقة ، والهمة العالية ، والنفس الكريمة . وكل مصرى يمر على بصره حروف اسمك يرتل مجدك . وكل مصرى يخطر بخاطره جهادك يلقى له فيه درسا نافعا ، وتعليما صالحا . فالأفراد يموتون ، ولكن الأمم تحيا . ومن كان فيها أمثالك ، يعمل أعمالك ، فإنها لا تحيا فقط على الدهر ،

بل تزداد كل يوم حياة ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . والأرض يرثها الصالحون .

نم مرتاحا ، فقد جاهدت جهاد العاملين ، فكسبت أجر الصالحين » . هذا ما كتبته صحيفة الأهرام .

وبعد فقد ضحى فريد بحياته وثروته ، وراحته ومركزه ، وأسرته وأولاده فى سبيل مصر ، وحريتها واستقلالها ، فهل تذكره مصر ؟ وهل يذكره المصريون ؟ ليس فى مصر من ضحى بمثل ما ضحى به فريد . لقد كانت له ضيعة أكثر من ألف فدان بمركز منيا القمح شرقية باعها فى سبيل مصر . كان له كثير من البيوت ، فباعها فى سبيل مصر .

كان من السهل أن يكون وزيرا ورئيسا للوزراء لو كان ممن يفكرون فى أنفسهم . ولكنه عاش لمصر ، ووهب حياته وثروته لها ، وترك أولاده صغارا للقدر ، وكان لا يجد الضرورى من وسائل العيش فى آخر حياته . وعولج بمستشفى للفقراء فى مرضه الأخير ، وكان من الأثرياء بالوراثة ، فهل تنسى مصر فريدا بعد هذه التضحية ؟ وهل يعرف الشبان من المصريين شيئا عن حياة فريد ؟